الأنبياء الكرام

هود- صالح- إبراهيم

عليهم السلام

اسم الكتاب: الأنبياء الكرام

هود- صالح- إبراهيم (عليهم السلام)

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة

مؤسسة نافذ للبحث والطباعة والنشر

الطبعة الأولى:: ١٤٤٢هـ-٢٠٢٠م

تنسيق الكتاب وتصميم الغلاف: د. نافذ الجعب

سلسلة حديث الأنبياء(4)

الأنبياء الكرام

هود- صالح- إبراهيم

عليهم السلام

الأستاذ

إبراهيم أحمد قشطة

رفح- فلسطين

١٤٤٢هـ-٢٠٢٠م

مطبعة نافذ
0599920845

بسم الله الرحمن الرحيم

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

المحتويات

الباب الثاني: النبي الكريم صالح عليه السلام

الباب الثالث: أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام

المقدمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

وبعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

ثم أما بعد:

هذا كتاب حديث الأنبياء، قصة هود وصالح وإبراهيم، والذي يروي سيرة ثلاثة من الأنبياء العظام، وهم: هود، وصالح، وإبراهيم مع أقوامهم.

وقد جاءت قصصهم في الترتيب القرآني هكذا: قصة هود، ثم صالح، ثم إبراهيم، ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (التوبة: ٧٠)

وقد وقع الكتاب في ثلاثة أبواب، حيث جاء الباب الأول (النبي الصالح هود عليه السلام) يحكي قصة هود - عليه السلام - مع قومه، الذين لم يخلق مثلهم في البلاد في الزمان الأول، وقد جاء الباب في فصلين:

الفصل الأول (قصة هود عليه السلام) وقد تحدث عن: قوم هود، والنعم التي أجراها الله عليهم، وبعثة هود ودعوته، وموقف عاد من دعوة نبيهم هود، وناقش الفصل ادعاء عاد الكاذب بعدم اتيان هود ببينة، وخُتم الفصل بذكر نبأ هلاك عاد بالريح العقيم.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة هود عليه السلام) تناول أهم الفوائد المستطابة من قصة هود.

وجاء الباب الثاني (النبي الكريم صالح عليه السلام) يروي قصة النبي صالح – عليه السلام – مع قومه ثمود، الذين جابوا الصخر بالواد، وقد قسم الباب إلى فصلين:

الفصل الأول (قصة صالح عليه السلام) وقد تناول أين مساكن ثمود، والنعم التي أنعم الله بها عليهم، وبعثة صالح ودعوته، وكيف قابلت ثمود دعوة نبيهم، وذكر الفصل المعجزة الباهرة ناقة الله المعجزة، وذكر الفصل فاجعة ذَبْح الناقة، مما عجل وقوع عذاب الطاغية بثمود.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة صالح عليه السلام) سلط الضوء على أهم الفوائد المستطابة من قصة صالح.

وختم الكتاب بالباب الثالث (أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام) الذي يحكي قصة خليل الرحمن إبراهيم مع قومه الصابئة المشركين، وقد وقع الباب في فصلين:

الفصل الأول: (قصة إبراهيم عليه السلام) حيث تحدث عن: ديانة قوم إبراهيم، ودعوة إبراهيم الحارة لقومه، وجُرأته في مناظرة النمرود، وذكر الفصل حادثة إلقاء إبراهيم في النار، وتحدث الفصل عن خبر زواجه بسارة، وهجرته إلى الشام ومصر، وتحدث عن سبب زواجه من هاجر المصرية، وإنجابه الغلام الحليم إسماعيل، ونبأ هجرته بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز)، وعدد الفصل النعم التي أجراها الكريم المنان على أسرة خليله في أرض الحجاز.

وذكر الفصل مولد إسحاق، وناقش من الذبيح؟ وذكر الفصل خبر زواج إسماعيل، وبناء الكعبة، وناقش الفصل قضايا مهمة: هل وقع شك من إبراهيم؟ هل بنى الكعبة قبل إبراهيم آدم أو الملائكة؟

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام) اهتم بذكر أهم الفوائد المستطابة من قصة إبراهيم.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وفقت في اجتهادي هذا، فما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان من نقص أو خطأ فمن نفسي ومن الشيطان، آملًا أن ينفع الله تعالى بهذا الكتاب، وأن يثيب من أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

أسير خلف ركاب القوم ذا عرج … مؤمّلًا جَبْرَ ما لاقيت من عرجِ
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا … فكم لرب السماء في الناس من فرجِ
وإن ظللتُ بقفــر الأرض منقطعًا … فما على الأعرج في ذلك من حــرجِ

إبراهيم أحمد قشطة

الباب الأول

النبي الصالح



مقدمة الباب:

يحكي هذا الباب قصة هود – عليه السلام – مع قومه عاد اللئام، الذين لم يخلق مثلهم في البلاد في زمانهم من حيث القوة والنعمة، فدعاهم وأرشدهم، وصبر على أذاهم حتى جاءهم عذاب الله الريح العقيم، وقد وقع الباب في فصلين:

الفصل الأول (قصة هود عليه السلام) حيث تحدث عن:

مَنْ قوم هود؟ وما النعم التي توافرت عليهم؟ ومَنْ أعاد عبادة الأصنام إلى الارض ثانية؟ وذَكَرَ الفصل دعوة هود الكريمة لهم، وما كان من موقف عاد العدائي السيئ من دعوة نبيهم، وكما تحدث الفصل عن بينة هود وآيته لقومه، وخُتِمَ الفصل بخبر هلاك عاد بالريح العقيم.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة هود عليه السلام) تناول أهم الفوائد المستطابة من قصة هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إبراهيم أحمد قشطة

الفصل الأول

قصة

هود عليه السلام

تمهيد:

ذُكر هود – عليه السلام – في القرآن الكريم سبع مرات، وفي عدد من السور الكريمة، منها: سورة الأعراف، وسورة الشعراء، وهناك سورة كاملة تسمى بسورة هود. " (محمد الصابوني)

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾ (الأحقاف: ٢١)

أي: اذكر يا محمد لمشركي قريش وغيرهم خبر هود – عليه السلام – مع قومه الكافرين المقيمين في الأحقاف (والأحقاف: هي جبال من الرمال عظيمة في اليمن)؛ ليعتبروا به.

مَنْ قوم هود عليه السلام؟

قوم هود هم قبيلة عاد، وعاد قبيلة عربية بائدة، وكانت تسكن في الأحقاف جهة اليمن، " من جنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها عمان، وموضع بلادهم اليوم رمال، ليس بها أنيس ولا سمير. " (محمد الصابوني)

وعاد قوم هود هم عاد الأولى المذكورين في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴾ (النجم: ٥٠)، وأما عاد الثانية هي ثمود قوم صالح.

وكان أهل عاد كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، قال تعالى: " ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ﴾ (الفجر: ٦ – ٧) أي: ألم يصل لعلمك يا محمد، ما الذي فعله الله بعاد الأولى أهل إرم ذات خيام لها أعمدة ضخام؟

تصحيح: ذُكر أن إرم مدينة، وقيل هي: دمشق، وذكر أنها الإسكندرية، وذكر في بنائها وزخارفها ما هو من قبيل الخيال، وهذا كله غير صحيح. **والصواب – والله أعلم – أن إرم اسم القبيلة.**

وبلغت عاد (إرم) من القوة وشدة البأس وكثرة الأموال والولد مالم تبلغه أمة في الزمان الأول، كأنهم لم يخلق مثلهم أحدًا في زمانهم، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ ﴾ (فصلت: ١٥)

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾ (الفجر: ٨) أي: لم يخلق مثلهم في زمانهم في القوة وشدة البأس.

فالقرآن يخبرنا أنَّ عاد (إرم) كانت قبيلة أفرادها في منتهى القوة والبأس، ولكن ليس معنى ذلك أنهم كانوا خارقين للعادة، وأنهم كانوا

خارجين عن المألوف في الفطرة، وإنما كانت قوتهم، وشدة بأسهم حسب العادة والمألوف لدى البشر، ولكنهم فاقوا أهل زمانهم.

وبذلك ندرك خطأ من قال في وصف قوتهم: أنَّ الواحد منهم كان طوله يصل إلى اثني عشر ذراعًا في السماء، وكان يحمل الصخرة العظيمة وكأنها حبة سمسم أو أقل، ويستطيع أن يلقيها على من يشاء، وللمسافات بعيدة فيهلكه!

والعجيب نسب ذلك إلى المعصوم – صلى الله عليه وسلم – فقد روي عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **كان الرجل منهم يأتي إلى الصخرة، فيحملها على كاهله، فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم**."

قال أبو شبهة: " ولعن الله من نسب مثل هذا الباطل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نشك أن هذا من عمل زنادقة اليهود والفرس وأمثالهم، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام، فسلكوا في محاربته مسلك الدس، والاختلاق، بنسبة هذه الخرافات إلى المعصوم صلى الله عليه وسلم." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وبرعت قبيلة عاد في بناء القصور الشامخة، فنحت بيوتًا فارهة في الجبال، كما أخبر هود عليه السلام: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً

تَعۡبَثُونَ ١٢٨ ﴾ (الشعراء: ١٢٨) أي: " أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناء شامخًا كالعلم لمجرد اللهو والعبث؟ " (محمد الصابوني)، وليعرف بذلك غناهم ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ ﴾ (الشعراء: ١٢٩) أي: " تتخذون قصورًا مشيدة بحكمة." (محمد الصابوني)

وكانوا مترفين في الحياة إيما ترف، فعندهم الحدائق الغناء الناضرات، والعيون الجاريات المتدفقات، والأموال والأولاد والقصور الفارهات، قال هود معددًا نعمهم: "﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ ﴾ (الشعراء: ١٣٢ – ١٣٤)

بعثة الله هود:

مكث البشر بعد الطوفان على التوحيد ما شاء الله أن يكونوا عليه، حتى استزلهم الشيطان، وحرفهم عن التوحيد إلى عبادة الأصنام، فكانت عاد هي أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، فبعث الله إليهم أخاهم هودًا نبيًا من نفس قبيلتهم، يعرفونه، ويعرفون نسبه وأخلاقه وفضله، بعثه تعالى؛ ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ (الأعراف: ٦٥) أي: أرسلنا إلى عاد أخاهم في النسب، وليس في الدين والعقيدة؛ ليوحدوا الله.

دعوة هود لقومه:

اجتهد هود – عليه السلام – في دعوة قومه – فدعاهم دعوة حارة قوية، سالكًا معهم كل طريق ووسيلة.

فبدأ دعوته لهم بالترغيب، قال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ ﴾ (هود: ٥٢)

أي: يا قومِ استغفروا الله من شرككم وكفركم، وارجعوا إليه بالطاعة والإنابة، والتمسك بالإيمان والتوحيد، وإن فعلتم ذلك ابشروا بالخصب والنماء لكثرة المطر الغزير المتتابع النافع، وابشروا بزيادتكم عزًا وفخارًا فوق عزكم وفخاركم.

قال الصابوني: " وفي هذه الآية دليل على أن التوبة والاستغفار سبب للرحمة ونزول الأمطار." (محمد الصابوني)

وذكرهم بنعم الله عليهم: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ ﴾ (الشعراء: ١٣٢ – ١٣٣)، وقوله: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ

بَسۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٩)

أي: اذكروا نعم الله عليكم حيث استخلفكم في الأرض بعد قوم نوح، وزادكم في أجسامكم قوة وضخمة.

ثم حذرهم من بطش العزيز الجبار إن هم أصروا على كفرهم وعتوهم، وأقاموا على عبادة آلهتهم الباطلة، ﴿ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الأعراف: ٧١)

أي: " (وقد) حلّ بكم عذاب من الله أتخاصمونني في أصنام لا تضر ولا تنفع، ما أنزل الله بعبادتها من حجة أو برهان، فانتظروا نزول العذاب إني من المنتظرين لما سيحل بكم، وهذا غاية الوعيد والتهديد." (محمد الصابوني)

وختم دعوته لهم بأن بيّن لهم: أنه لهم ناصح أمين، قال تعالى: ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٨)

أي: " أبلغكم أوامر الله، وأنا ناصح لكم فيما أعدوكم إليه، أمين على ما أقول لا أكذب." (محمد الصابوني)

وقال: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (هود: ٥١) أي: " لا أطلب منكم على

(هذا) النصح والإرشاد جزاء ولا ثوابًا، إنما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني، أتغفلون عن ذلك أفلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاء منكم هو لكم ناصح أمين؟! والاستفهام للإنكار والتقريع." (محمد الصابوني)

موقف عاد من دعوة نبيهم هود:

استمعت عاد دعوة نبيهم هود المخلصة الصادقة، وكان من المفترض بعد سماعهم هذه الدعوة اللطيفة الكريمة، والموعظة الرقيقة المخلصة، أن يستجيبوا له، ولكن – يا للأسف – كان جواب عاد على هذه الدعوة الكريمة الرفض، والاستهزاء، والتكذيب، فقالوا له : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٦٦)

فقد قال الأشراف من قومه إننا نراك في خفة حلم وسخافة عقل، وإننا لا نشك أنك من الكاذبين في ادعاك الرسالة.

وقد أجابهم هود على ذلك فقال: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأعراف: ٦٧) أي: ليس بي كما تزعمون من نقص عقل، ولكنني مرسل إليكم بالهداية من رب العالمين. " (محمد الصابوني)

" قال الزمخشري: وفي إجابة الأنبياء – عليهم السلام – مِمّن نَسَبَهم إلى السفاهة والضلالة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم وترك المقابلة، أَدَب حسن وخلق عظيم، وتعليم للعباد كيف يخاطبون السفهاء ويسلوا أذيالهم على ما يكون منهم." (محمد الصابوني)

وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود: ٥٣) أي: " لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك، ولسنا بمصدقين لنبوتك ورسالتك، والجملة تقنيط من دخولهم في دينه." (محمد الصابوني) ثم نسبوه إلى الجنون فقالوا: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ (هود: ٥٤) أي: " ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتنا عن عبادتها." (محمد الصابوني)

" قال الزمخشري: دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة، غلاظ الأكباد، لا يلتفون إلى النصح، ولا تلين شكيمتهم للرشد، وقد دلّ قولهم الأخير على جهل مفرط، وبلهٍ متناهٍ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم." (محمد الصابوني)

وبلغ عتوهم وجهلهم أن وصّى بعضهم بعضًا أن يبقوا على الكفر قائمين، وعلى الطغيان مستمسكين، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا

بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (المؤمنون: ٣٣ – ٣٤)

فقد قال أشراف عاد المترفين المنعمين: هذا الذي يزعم أنه رسول رب العالمين ما هو إلا شخص عادي مثلكم، أليس يأكل كما تأكلون، ويشرب كما تشربون؟ فبِمَ يفضل عليكم؟! وحذروهم: إن انخدعتم فيه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقًا؛ لأنكم أذللتم أنفسكم باتباع شخص عادي مثلكم!

" قال أبو السعود: انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسرانًا، دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون؟ " (محمد الصابوني)

فلله درك يا هود! كم لاقيت من قومك من الغلظة والقسوة والكبر والعناد، فصبرت واحتسبت، حتى قال عنك الرسول صلى الله عليه وسلم: " **كان هود النبي – صلى الله عليه وسلم – رجلًا جلدًا**. " (المستدرك: ٤٠٦٠)

بينة هود:

من مقالات عاد لنبيهم هود: ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ ﴾ (هود: ٥) أي: " ما جئتنا بحجة واضحة تدلّ على صدقك. " (محمد الصابوني)

فهل هود لم يكن معه بينة من الله تشهد أنه رسول إليهم؟!

لا يلزم من عدم إظهارها عدمها، فقد قال صلى الله عليه وسلم: " **ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله أُومن أو آمن عليه البشر.**" (رواه مسلم: ٦٨٨٤)

ومعنى هذا الحديث أنَّ جميع الأنبياء والمرسلين – بما فيهم هود بالطبع – قد أرسل الله معهم بينة ومعجزة يؤمن بها البشر، وتشاهد بأنهم أنبياء مرسلون؛ لذا ادعاء عاد ما هو إلا محض كذب وافتراء!!

ما بينة هود؟

بينة هود كانت بينتين بينة عامة وبينة خاصة.

أما البينة العامة:

هي بينة جميع الأنبياء والمرسلين، وهي نفس الدين الذي جاء به، فأحكام دين هود – عليه السلام – ومبادؤه كلها خير للناس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: الرسول الحق يأتي بما هو مُصَدّق لمن قبله، ويُصَدّقه من يأتي بعده، وهود – عليه السلام – جاء بنفس ما سبقه به الأنبياء والمرسلين، وصدقه من جاء بعده من الأنبياء والمرسلين.

وأما بينة هود الخاصة:

هي تحديه العلني لقومه، أهل البطش والجبروت، مسفهًا أحلامهم وآلهتهم، والتي ما فتأوا أن يخوفوه بها، قال هود: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ (هود: ٥٤ – ٥٥) أي: أشهد الله على نفسي، واشهدوا

أيضًا يا قومِ أنني قد برئت من شرككم وكفركم، ولا أخاف كيدكم فاحتالوا بكل طاقتكم في إيقاع الكيد والهلاك بي أنتم وآلهتكم المزعومة، ولا تمهلوني لحظة واحدة!

ومع هذا التحدي العلني لم يصلوا إليه بسوء، فأي بينة أعظم من هذا التحدي.

" قال أبو السعود: وهذه من أعظم المعجزات، فإنه – عليه السلام – كان رجلًا مفردًا بين الجم الغفير من عتاة عاد، الغلاظ الشداد، وقد حقرهم وهيجهم بانتقاص آلهتهم، وحثهم على التصدي له، فلم يقدروا على مباشرة شيء، وظهر عجزهم على ذلك ظهورًا بينًا. " (محمد الصابوني)

" وقال الزمخشري: وأعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقته بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم. " (محمد الصابوني)

لطيفة: قال هود: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾ ولم يقل: إني أشهد الله وأشهدكم إني بري مما تشركون "؛ وذلك لنكتة طريفة هي: " حتى لا يستوي الشاهدين في الصدق، وعدولًا إلى الاستهزاء بهم والتهكم بهم، إذ شهادتهم لا تأثير لها، ولا اعتبار بها." (خالد السبت: ١٤٢١هـ)

وقال الصابوني: وذلك لئلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فأين شهادة الله العلي الكبير من شاهدة العبد الفقير؟! (محمد الصابوني)

هلاك عاد:

استعجلت عاد العذاب الذي هددهم به نبيهم، فتبجحوا قائلين: ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢ ﴾ (الأحقاف: ٢٢) أي: " فأتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقًا فيما تقول، قال ابن كثير: استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادًا منهم لوقوعه. " (محمد الصابوني)

وبالفعل جاءهم ما استعجلوه، وأول ما ابتدأهم من العذاب الأليم، أنهم كانوا مملحين، فطلبوا السقيا (المطر)، فرأوا عارضًا (سحابًا) في السماء، فظنوه سقيا رحمة، فإذا هو مطر عذاب، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾ (الأحقاف: ٢٤)

أي: لما رأوا السحاب معترضًا في أفق السماء، متجهًا نحو أوديتهم المملحة الجافة، استبشروا وفرحوا وقالوا: هذا السحاب سيكون غيثنا، وبه مطر غزيز متدفق لنا، فقال هود لهم: ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ﴾ (الأحقاف: ٢٤) أي: ليس الأمر كما تمنيتم أنه مطر غيث، بل هو ما استعجلتم به من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأحقاف: ٢٤)

فكان هذا العارض حاملًا ريحًا صرصرًا عاتية ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٥)، سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا متتابعات لا تنقطع، فجعلتهم هلكى، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ [1] (الحاقة: ٦ – ٨)

أهلك الله عادًا بالريح العقيم التي لم تبق منهم أحدًا إلا هودًا ومن معه من المؤمنين، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ ﴾ (هود: ٥٨)

---

(١) قوله: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: شديدة السموم أو البرد أو الصوت ، وقوله: ﴿حُسُومًا﴾ أي: متتابعات أو مشؤومات.

لطيفة: كررت التنجية في قوله:﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ (هود: ٥٨)؛ لئن المراد بالأولى: تنجيتهم من عذاب الدنيا، الذي نزل بقوم هود، وهي (سموم) أرسلها الله عليهم، فقطعتهم عضوًا عضوًا، وبالثانية: تنجيتهم من عذاب الآخرة، الذي استحقه قوم هود بالكفر. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

هلكت عاد بعد أن كانت الدنيا ضاحكة لهم ومقبلة عليهم، هلكت عاد بعد أن كانوا يرفأون في نعمة المال والقوة والعزة، وإذ بالدنيا تدبر عنهم، وتتركهم وهم صرعى مخذولون،﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ ﴾ (القمر: ٢٠) أي: كأنهم جذوع نخل مقطوع الرأس منقلع عن قعره ومغرسه، و ﴿ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ ﴾ (الحاقة: ٧) أي: كأنهم جذوع نخل بلا رؤوس ساقطة أو خاوية أو بالية.

والذي يبدو أن الهلك عمّ جميع الكفرة من عاد؛ لئن كلمة (أعجاز) اسم جنس جمعي مما يدل على عموم الهلاك لجميع أفراد عاد الكافرين، وعدم نجاة منهم أحد سوى هود ومن آمن به، ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (الأحقاف: ٢٥)

أي: أصبحوا هلكى لا تكاد أن تلمح لهم أثرًا إلا مساكن مهدمة، وهذه العقوبة هي عقوبة كل من كان عاصيًا مجرمًا كافرًا.

ويسدل القرآن الستار على مشهد مصرع عاد الذليل، بقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٦٠﴾ (هود: ٦٠)

قصة عاد في أبيات:

نظم زهير أبو خاطر قصة عاد:

القـــرون الأولـــى عـــادٌ مـــا أطغاهـــا ... قـــد كفـــرت بـــالله فبـــريحٍ أرداهـــا

هـــودٌ كـــم نـــاداهم للإيمـــان ســـنينا ... بعنـــادٍ صـــدوه حقـــدٌ قـــد أعماهـــا

قـــد تركـــوا آثـــاراً ومنـــازلَ ســـكنوها ... من صخرٍ شادوها تُخبر عن فحواها

بطشـــوا جبّارينـــا وتمـــادَوا إفســـاداً ... فـي الأرض عمالقـةً عجبـاً مـا أقواهـا

لمـــا ازدادوا كفـــراً أهلكهـــم مولانـــا ... أيـــامٌ نحِســـاتٌ قـــد خلّـــد ذكراهـــا

فـاعتبروا واتعظـوا مـن قصـصٍ مختـارة ... رب الكـون تعـالى فـي القـرآن حكاهـا

إنّ الشـرك لظلـمٌ يُـردي الكـافر نـارا ... وحّـد ربـك أسـلِم حتـى لا تصـلاها

رب النـــاس إلـــهٌ فـــردٌ حـــيٌّ صـــمدٌ ... قـــد خلـــق الإنســـان والـــدنيا ســـوّاها

قـــد أبـــدع أكوانـــاً وســـماواتٍ ســـبعاً زيّنهـــا بنجـــومٍ تلمـــع مـــا أحلاهـــا
خلـق الشـمس سـراجاً جعـل القمـر منيـرا والأرض بأوتـــادٍ ثبّتهـــا ودحاهـــا
أجـــرامٌ ونجـــومٌ ومجـــراتٌ تجـــري آيـــاتٌ فـــي الكـــون نتفكّـــر معناهـــا
تســـبح فـــي أفـــلاكٍ ونظـــامٍ محبـــوكٍ تـشـهـد فـي تـسـليـمٍ وتـسبّح مولاهـا

تصحيح:

قيل: هلكت عاد بالريح العقيم، ثم إن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، فظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة، فأرسل الله عليهم شرارًا ونارًا، وهذا بعيد والله أعلم.

وذكر: أنّ العارض هو عذاب ثمود (عاد الثانية)، وأما الريح هي عذاب عاد الأولى، وهذا بعيد أيضًا والصواب ما ذكرناه، والله أعلم.

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

هود عليه السلام

تمهيد:

قصة هود كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدروا منها:

القسم الاول: العرب البائدة:

القبائل البائدة هي: قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وقديس، وأميم، وجُرهم، وحضرموت، ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها، واضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

القسم الثاني: العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرب بن يشخب بن قحطان، وتسمى بالعرب القحطانية، ويعرفون بعرب الجنوب، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ، وحمير.

القسم الثالث: العرب العدنانية:

" نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهم المعرفون بالعرب المستعربة (أي: الذين دخل عليهم دم ليس عربيًا، ثم اندماج بين هذا الدم وبين العرب)، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد. " (علي الصلابي: ٢٠٠١)

وذهب جواد علي إلى:

" مصطلح العرب العاربة والمستعربة حسب الروايات الجاهلية إذا درسنا هذا جيدًا، تختلف عن المقصود عنها بالمعنى الذي ذهب إليه الإسلاميون، فالعرب في الجاهلية يرون أن المستعربة هي التي تسكن قرب الروم والفرس، أي على أطراف الجزيرة، أما العاربة فهي البعيدة، ولم يقصدوا بالعاربة القحطانيين والمستعربة العدنانيين، وإنما هذا التفسير وقع من النسابين في أيام الأمويين. " (جواد علي:١٩٧٣)

٢. رياحًا .. لا ريحًا:

الرياح لا تكون إلا بالخير، أما الريح فقد تكون نعمة وقد تكون نقمة، فتكون نعمة إذا حركت السحاب وأنزلت الغيث، وتكون نقمة إذا ما زادت وهاجت حتى قلعت الأشجار، وهدمت البيوت، وخربت البلاد.

وقد صح عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: **ما رأيت رسول الله ضاحكًا حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرف في وجهه، قالت: يا رسول الله، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية؟ فقال: يا عائشة، ما يُؤَمِنّي أن يكون فيه عذاب؟ عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا."** (رواه البخاري: ٤٨٢٨)

وكان صلى الله عليه وسلم إذا هاجت الريح استقبلها بوجهه، وقال: **" اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، قالت: وإذا تخيلت السماء تغير لونه ودخل وخرج، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته؟ فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد " فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم، قالوا هذا عارض ممطرنا."** (رواه مسلم: ٨٩٩– ١٤٩٦)

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى سحابًا مقبلًا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه ، وإن كان في صلاته حتى يستقبله فيقول: اللهم إنا نعوذ بك من شر ما أرسل به، فإن أمطر قال: اللهم سيبًا نافعًا (والسيب هو العطاء، وقيل: السيب هو الجاري) **مرتين أو ثلاثة، وإن كشفه الله – عز وجل – ولم يمطر حمد الله على ذلك."** (رواه النسائي (١٨٣٠) وابن ماجه: (٣٨٨٩) واللفظ له، وأحمد: (٢٥٥٧)، وهو حديث صحيح)

٣. إن ربي على صراط مستقيم:

قال هود: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ (هود: ٥٦)

قال ابن القيم:

" أي: هو ربي، فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمكنكم مني، فإنَّ نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته، فإنَّ ناصية كل دابة بيده، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه، فهو المتصرف فيها، ومع هذا، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها، ونفوذ قضائه وقدره فيها على صراط مستقيم، لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم عليّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه؛ لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم، لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة. " (ابن القيم)

٤. سبب بطر عاد وطغيانهم:

" قول هود لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ (الأعراف: ٦٩)

يدل على أن ما جرى لقوم نوح قبلهم من الهلاك والإغراق كان لا يزال ماثلًا في أذهانهم، ومع ذلك لم ينتفعوا بهذه العبرة؛ لئن حب الدنيا والأنس إلى ما هم فيه من شرف ونعيم أعماهم، وأصمهم، وحملهم على البطر والطغيان، وهذه عادة كثير من الناس في كل زمان ومكان، إذا أعطوا شيئًا من الغنى أو القوة نسوا كل واعظة، وأَمِنوا كل جائحة، ولم يعتبروا بمصارع الذين كانوا من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ (العلق: ٦ – ٧) (محمد هراس)

ولله درّ أبو حازم الأعرج حين قال: " نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت. " (الجاحظ: ٢٠١٠)

٥. أصحاب المصالح أشد أعداء دعوة الأنبياء:

إن الذين ناوأوا هودًا، وكذبوه، وحملوا لواء المعارضة لدعوته هم الملأ والأشراف من قومه، كما كان الحال مع نوح تمامًا.

وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، أن أهل الغنى والجاه هم العقبة الكؤود في طريق كل إصلاح؛ لأنهم يخشون من هذه الثورات الإصلاحية التحريرية أن تقضي على جاههم ونفوذهم، وأنَّ تنبه الجماهير المستذلة إلى حقوقها المسلوبة، ومصالحها المهدورة، فستثور على هؤلاء المستكبرين، وتنزلهم من علياء كبريائهم وصلفهم.

أما المستضعفون من الناس فهم الذين يقبلون على دعوات الإصلاح، ويسارعون إلى اغتنامها؛ لأنهم يرون فيها الخلاص من ربقة الذل والاستعباد. " (محمد هراس)

٦. ثقة المؤمن بربه لا تتزعزع:

ثقة المؤمن المطمئن لوعد الله ونصره لا تتزعزع، وهود ضرب المثل الأعلى في ذلك، حيث أعلن البراءة من قومه الكافرين، وأعلن البراءة من آلهتهم التي يدعونها من دون الله، وأشهد الله وأشهدهم على ذلك، وتحدهم وهم القوم الأشداء الغلاظ الأكباد أن يكيدوا له، وطلب منهم أن يجمعوا له كل ما عندهم من قوة، ثم لا ينظرونه، وهكذا شأن الواثقين بنصر الله، وهكذا شأن المتوكلين على الله، شأنهم عدم الاكتراث لما يرعد به أعداؤهم قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٣٩ ﴾ (الأحزاب: ٣٩)

٧. العلم ولا الحضارة لا ينفعان صاحبهما ما لم يتوجا بالإيمان:

العقول والأذهان والذكاء وما يتبع ذلك من قوة مادية، وما يترتب عليه من نتائج وآثار، لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله." (السعدي: ٢٠٠٢)، فهذه عاد التي لم يخلق في الزمان الأول مثلها، لم ينفعها كل ذكاء ملئها أو قوة أفرادها ما لم يصادف ذلك إيمان بالله.

وهكذا كل حضارة في أي زمان ومكان مهما امتلك أصحابها عقلًا بارعًا، وذكاءً حاذقًا، وذهنًا متوقدًا، وقوة خارقة، ولم تقارن ذلك بإيمان صحيح، وخلق قويم، هي حضارة هلامية هشة، كعملاق من دخان مهيب الشكل أخاذ المنظر، ولكنه سراب عما قريب يذهب متبددًا!

٨. استدراج الله للظالمين:

توافر النعم وتكاثرها على الإنسان مع اقترافه الذنوب والمعاصي هو استدراج من الله يقول تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٥ – ٥٦)

فلا يظن المغرورون في قولهم: ﴿ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (سبأ: ٣٥) أنهم في منأى عن عذاب الله، فقد أخطأوا، وخاب رجاؤهم، وانهزم خيلهم، بل إنما يفعل الله بهم ذلك استدراجًا وإنظارًا وإملاء، ولهذا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ (التوبة: ٥٥)

وقد قال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ (سبأ: ٣٧)

وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب.** " (رواه البيهقي: ٣١٤)

فمن تكاثرت عليه النعم، وهو مقيم على الذنوب، فيصدق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " **إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:** ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (الأنعام: ٤٤) (رواه أحمد)

قال قتادة: مُكِرَ – والله – بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم فلا تعتبر الناس بأموالهم، وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان، والعمل الصالح.

الخاتمة

عاش البشر بعد الطوفان على التوحيد ما شاء الله أن يعيشوا عليه، حتى استزلهم الشيطان وحرفهم عنه، فعبدوا الأصنام، وكان أول من وقع منه عبادة الأصنام من البشر بعد الطوفان عاد الأولى (إرم) التي لم يخلق مثلها في زمانهم الأول من حيث القوة والنعمة.

أرسل الله إليهم أخاهم هودًا نبيًا، يعرفونه، ويعرفون نسبه وفضله، أرسله ليدعوهم إلى التوحيد، وخلع الأنداد والأصنام، وإفراد الواحد القهار بالعبادة، وقد سلك معهم هود النبي الكريم أفضل السبل، وأسمعهم ألطف العبارات، فما قبلت عاد دعوة نبيهم الكريمة بل ناصبوه العداء، ورموه بالكذب والسفه والاستهزاء.

صبر نبي الله هود على أذاهم، ولم ييأس من دعوتهم، فثابر واستمر في دعوتهم، ولكنهم ما لانوا أو استكانوا، بل تبجحوا واستهزؤوا بعذاب الله، حتى أوقع الله عليهم العذاب الشديد ريحًا صرصرًا عاتية تدمر كل شيء بأمر ربها، سلطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيامًا حسومًا، فجعلتهم صرعى كأعجاز نخل مقطوع الرأس مقلب الهيئة.

وهكذا هلكت عاد الأولى الكافرة فما أغنت عنهم قوتهم، وما نفعهم بأسهم شيئًا، حتى صارت ديارهم أثر بعد عين، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٢. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعًا ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١هـ.

٣. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ببيروت، ١٩٧٣م.

٤. زكريا بن محمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢ م.

٥. شمس الدين ابن القيم الجوزية، تهذيب مدارك السالكين، دار المنطلق، بدون سنة نشر.

٦. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي – الجزء الأول، نادي المنيا، ١٩٨٨م.

٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٨. عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، مكتبة ابن سينا ٢٠١٠ م.

٩. علي محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار النشر والتوزيع، ٢٠٠١ م.

١٠. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

١١. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

١٢. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.
١٣. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨هـ.
١٤. محمد بن علي الشوكاني، تحفة الذاكرين، مكتبة الورود، بدون سنة نشر.
١٥. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢ م.

الباب الثاني

النبي الكريم

صالح عليه السلام

مقدمة الباب:

يروي هذا الباب سيرة النبي الكريم صالح مع قومه ثمود، الذين جاؤوا بعد عاد الأولى، وما اعتبروا بما حل بسلفهم عاد من العذاب والنكال، فدعاهم ونصح لهم، لكنهم لا يحبون الناصحين، فكان مآلهم كأسلافهم، وذلك من خلال فصلين:

الفصل الأول (قصة صالح عليه السلام) حيث تحدث عن: ثمود ومساكنهم، والنعم التي توافرت عليهم، ودعوة صالح لهم، وكيف قابلوا دعوة صالح الكريمة بالغلطة والتسفيه والإهانة، وبيّن الفصل آية صالح البينة، وهي ناقة الله المعجزة، وما كان من شأن ثمود معها، وخُتِمَ الفصل بذِكْر كيفية إهلاك الله تعالى ثمود فما أبقى.

وأما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة صالح) ذكر أهم الثمار المستطابة من قصة صالح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم.

إبراهيم أحمد قشطة

الفصل الاول

قصة

صالح عليه السلام

تمهيد:

ذُكرت قصة صالح في أكثر من موضع في القرآن، منها: الأعراف، وهود، والحجر، والإسراء، وغيرها.

" وتجيء قصة صالح في الترتيب القرآني عقيب قصة هود في جميع المواضع التي ذكرت فيها القصتان، ففي سورة الأعراف جاءت القصص على هذا الترتيب: نوح ثم هود ثم صالح. " (محمد هراس)

" بل قد جاء على لسان صالح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ﴾ (الأعراف: ٧٤)

مما يدل على أن الأمتين عاد وثمود كانتا متقاربتين في الزمان، وأن ثمود كانت على علم بما جرى لأسلافهم عاد من العذاب والنكال." (محمد هراس)

مساكن ثمود:

قوم صالح هم ثمود، وثمود قبيلة عربية مشهورة بائدة من بقايا عاد، وكانوا يسكنون الحجر؛ لذا سماهم الله في كتابه العزيز أصحاب

الحجر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (الحجر: ٨٠)

" والحجر (مكان) يقع بين الحجاز والشام، ويمر عليها المسافر بطريق البر، ويعرف الآن (بفج الناقة)، وآثار مدائن هؤلاء القوم ظاهرة حتى الآن، وتسمى مدائن صالح. " (محمد الصابوني)

يقول المسعودي:

" ورممهم باقية، وآثارهم بادية، في طريق مَنْ ورد من الشام، وحجر ثمود في الجنوب الشرقي من أرض مدين، وهي مصاحبة لخليج العقبة، (أي أنها قريبة من خليج العقبة). " (محمد الصابوني)، وثمود هم عاد الثانية.

وقد مر بهذا المكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو ذاهب إلى غزوة تبوك بمن معه من المسلمين، **فعن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالناس عام تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت يشرب منها ثمود، فعجنوا منها، ونصبوا القدور باللحم، فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين للإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على**

القوم الذين عذبوا، فقال: إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم." (رواه أحمد: ٥٨٢٩)

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو بالحجر: " **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم.**" (متفق عليه)

تصحيح: " يرى بعض المؤرخين من المستشرقين: أن ثمود قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية، ولم يدخلوا فلسطين، وهذا الرأي باطل؛ لئن اليهود لم يعرفوا إلا بعد خروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من أرض مصر، فكيف يكونون يهودًا؟ وأصح الأقوال: أنهم كانوا عربًا من بقايا عاد، ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى على لسان نبيه الكريم صالح عليه السلام ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف: ٧٤) " (محمد الصابوني)

نِعَمُ اللّه على ثمود:

أنعم الله على ثمود بنعم عظيمة، وعطايات كثيرة، من البساتين المثمرة اليانعة، وعيون الماء الجارية المتدفقة، والنخل والزروع المختلفة المتنوعة، والمواشي الكثيرة النافعة.

قال تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ (الشعراء: ١٤٦ – ١٤٨) أي: " أيترككم في هذه الدنيا آمنين، مخلدين في النعيم، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت؟ في بساتين وأنهار جاريات وسهول فسيحة فيها أنواع الزروع والنخيل الرطب اللين ذات الطلع اليانع النضيج." (محمد الصابوني)

وأنعم الله عليهم بنعمة أخرى بأن أرشدهم إلى نحت الجبال بيوتًا فارهة؛ لتحميهم من حر الصيف وقيظه، ومن برد الشتاء وصقيعه، قال تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ (الأعراف: ٧٤) وقال تعالى: ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ (الشعراء: ١٤٩) أي: تبنون بيوتًا في الجبال أشرين بطرين من غير حاجة لسكناها." (محمد الصابوني)

ما بين نعم عاد وثمود:

قال الرازي: "الغالب على قوم هود هو اللذات الخيالية، وهي الاستعلاء، والبقاء، والتجبر. والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة." (محمد الصابوني)

بعثة صالح:

أعطيت ثمود نعم عظيمة، ومنحت جوائز سنية كريمة، فما شكروها حق شكرها، بل قابلوها بكفرها، والسير على درب من سبقهم من الكفرة العتاة المردة.

فكفرت ثمود بربها، واتخذت من دونه أندادًا وأصنامًا، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحًا نبيًا ورسولًا، يعرفون نسبه، وفضله، وأمانته، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾ (الأعراف: ٧٣)

دعوة صالح لقومه:

اجتهد صالح – عليه السلام – في دعوة قومه إلى الله تعالى قائلًا لهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴿٦١﴾ ﴾ (هود: ٦١)

ولم تكن دعوة صالح دعوة عادية، إنما كانت دعوة ذكية، تفنن صالح فيها، فسلك معهم طرائق قددًا متلطفًا مرة، فقال: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (هود: ٦١)

أي: هو تعالى ابتدأ خلقكم من الأرض، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة، واستعمركم فيها أي جعلكم عمارها وسكانها تسكنون بها." (محمد الصابوني)

وقال: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (الأعراف: ٧٤)

أي: اذكروا إذ جعلكم خلفاء في الأرض من بعد أن أهلك عادًا، وأسكنكم أرض الحجر تبنون في سهولها القصور الفارهة، وتنحتون من جبالها البيوت المنيعة، فهلا ذكرتم نعم الله تعالى عليكم، وقمتم بحق شكرها بأن تصلحوا في الأرض ولا تعثوا فيها مفسدين.

ومحذرًا أخرى قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [٢] (الشعراء: ١٤٦ – ١٥٢)

وأكد صالح لهم: أن دعوته خالصة من أطماع الدنيا من مال أو رئاسة أو غيرها، وإنما هي دعوة خالصة لله وحده لا يرجو وراءها أجرًا ولا شكورًا.

---

(١) قوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: لا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ ﴾ (الشعراء: ١٤٥)

موقف ثمود السيئ من دعوة صالح:

على الرغم من إخلاص صالح في دعوته، واجتهاده في ذلك اجتهادًا عظيمًا، إلا أن ثمود اشمأزت قلوبهم من دعوته، ونفروا واستكبروا، ثم استهزؤوا وسخروا، ورموه بالسفه والجنون، فقالوا له: ﴿ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴾ (هود: ٦٢)

أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراد الله بالعبادة، وترك ما كنا نعبد من الأصنام، والعدول عن دين الآباء والأجداد، ولهذا قالوا: ﴿ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢ ﴾ (هود: ٦٢)

واتهموا بأنه: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾ (الشعراء: ١٥٣)

أي: من المغلوبين عليه بالسحر، لا تدري ما تقول في دعوتك إيانا بإفراد العبادة لله!!

واتهموا بأنه كاذب، بل وتجاور حد الكذب في دعواه النبوة: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ ﴾ (القمر: ٢٥)

قال الرازي: وفي (هذه) الآية إشارة إلى ما كانوا ينكرونه بطريقة المبالغة؛ وذلك لئن الإلقاء إنزال بسرعة، فكأنهم قالوا: الملك جسيم والسماء بعيدة، فكيف ينزل عليه الوحي في لحظة؟ وقولهم: ﴿عَلَيۡهِ﴾ إنكار آخر كأنهم قالوا: ما ألقي عليه ذكرًا أصلًا، وعلى فرض نزوله فلِمَ يكون عليه من بيننا، وفينا من هو فوقه في الشرف والذكاء؟ وقولهم: ﴿أَءُلۡقِيَ﴾ بدلًا من قولهم: (أألقى الله) إشارة إلى أن الإلقاء من السماء غير ممكن فضلًا عن أن يكون من الله." (محمد الصابوني)

وتنقصوه بأنه بشر مثلهم، وقد يكون أقلهم: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ (الشعراء: ١٥٤)

وقالوا: ﴿ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ ﴿٦٢﴾ ﴾ (هود: ٦٢) وهذا القول من عجيب أمرهم إذ إنهم اعترفوا بأن صالحًا صاحب عقل كامل!! ومع ذلك ردوا دعوته، وقابلوها بالكفر والعناد.

وإن بحث عن سبب ذلك، تجده بسبب سجاياهم الخربة التي جُبلت على الكفر والعناد، ونفوسهم المريضة التي ما فتأت إلا استمرأ حب الدنيا، وفكرهم الأرستقراطي المتكبر المتعجرف الذي جعلهم يتبعون الأسلاف وإن كانوا على ضلال.

ولم يكتفوا بذلك، وإنما شككوا أتباع صالح المؤمنين المستضعفين في صدقه، فقالوا: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن

رَّبِّهِۦۚ﴾ (الأعراف: ٧٥) أي: قال أشراف القوم المستكبرين الأشرين للمستضعفين من أتباع صالح: أصالح صادق أم كاذب؟! سألوا ذلك على قصد السخرية والتهكم!!

فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾ (الأعراف: ٧٥)

" قال أبو حيان: وعدولهم عن قولهم (هو مرسل) إلى قولهم ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ في غاية الحسن، فإن أمر رسالته معلوم واضح مسلم، لا يدخله ريب لما أتى به من هذا المعجز الخارق العظيم، فلا يحتاج أن يُسأل عن رسالته. " (محمد الصابوني)

عندما سمع هؤلاء الملأ الكافرين مقالة المستضعفين اشتد بهم الغضب فصرحوا بالكفر: ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ (الأعراف: ٧٦)، " ولم يقولوا: إنا بما أُرسل به كافرون إظهارًا لمخالفتهم إياهم وردًا لمقالتهم." (محمد الصابوني)

آية صالح:

من مقالات ثمود المتعنتة لنبيهم صالح، طلبهم منه أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤﴾ (الشعراء: ١٥٤)

فأجاب صالح طلبهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بأن يؤمنوا به إن جاءهم بما طلبوا، فأعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم.

وجاءتهم الآية!! ﴿ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ ﴿٦٤﴾ ﴾ (هود: ٦٤) أي: هذه الناقة معجزتي إليكم، فكانت آيته ناقة عظيمة لا يشبهها شيء من النوق في ذاتها ولا شرفها ولا نفعها، فكانت معجزة باهرة، ونعمة عظيم للقبيلة بأسرها!!

> **لطيفة:** إضافة الناقة إلى الله تعالى هي إضافة تشريف وتعظيم، كقوله بيت الله وعبد الله.

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (الشعراء: ١٥٥) حيث قسم صالح ماء بئرهم بينهم وبين الناقة إلى يومين: يوم لثمود يشربون منه، ويسقون زروعهم، وبهائمهم، واليوم الثاني للناقة، وفي يوم الناقة ترد القبيلة كلها على ضرعها يشربون لبنها ويملؤون أوعيتهم منه.

﴿ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ ﴾ (هود: ٦٤) أي: على الله رزقها، ولكم نفعها.

وحذرهم ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ ﴾ (هود: ٦٤) أي: لا تنالوها بأي ضرر بالذبح أو الضرب، فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد أن يوصف. " (محمد الصابوني)

تصحيح: ذكر بعض المفسرين: أن ثمود طلبوا من صالح – عليه السلام – أن يخرج من صخرة صماء ، ناقة حاملًا، وأن تلد الناقة أمامهم، ويكون من أوصافها كذا وكذا حتى يؤمنوا له، وحددوا له الصخرة فقعد صالح – عليه السلام – يتفكر فجاءه جبريل، فقال صلّ ركعتين وسل ربك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة وولدت أمامهم، وبركت بين أيديهم، فقال لهم: هذه ناقة يا قوم.

وهذا الذي ذكروه لا يوجد له دليل من القرآن أو السنة الصحيحة؛ لذا صون كلام الله من أصوب!

هلاك ثمود:

مكث ثمود على حالهم مع الناقة حينًا من الدهر، ترد الماء، وترعى في السهول، وتأكل من ورق الشجر، وثمود تنتفع بلبنها شربًا وريًّا، فلما طال عليهم هذا الحال ملوا من الناقة، وضجروا بها، وهذا من عجيب أمرهم أن يملوا الناقة التي كانت تمنحهم اللبن!! ولم تضيق عليهم ماءهم!!

فاجتمع ملؤهم (أي: رؤوسهم وأشرافهم) وكان عدد هؤلاء المؤتمرين تسعة، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ (النمل: ٤٨) وكانوا أشر القوم، وهم الذين قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، فقد كانوا ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (النمل: ٤٨) أي: شأنهم الإفساد في الأرض، والتفنن في إيذاء العباد.

تناقش هؤلاء الملأ الأشرين في أمر الناقة، فحملهم جهلهم وسفههم على أن يقرروا ذبح الناقة؛ ليستريحوا منها بزعمهم الباطل، فيتوفر عليهم ماؤهم!! وما أن انتهى اجتماع هؤلاء الأشرين إلا وقعت فاجعة عظيمة، ذبحت الناقة!!

ودائمًا أسرع الناس للشر أشقاهم، فكان أسرع قبيلة ثمود إلى عقر الناقة أشقاهم، فالذي أقدم على ذلك الفعل الشنيع الفاجر رئيسهم (٣)

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ (الشمس: ١٢)

﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الأعراف: ٧٧)

وقد نسب الله عقر الناقة لجميع القبيلة على الرغم أن الذي عقرها منهم واحد وهو رئيسهم؛ لئن فعل هذا الشقي تم برضاهم جميعًا، فكأن كل واحد منهم هو الذي ذبحها!!

ذبحت ثمود الناقة، وعت عن أمر ربها غير أبهة بالتهديد والوعيد، وقالوا متبجحين: ﴿ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الأعراف: ٧٧) أي: جئنا يا صالح بما تعدنا من

---

(١) أخرج الشيخان عن عبد الله بن زمعة أنه **سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يخطب، وذكر الناقة، والذي عقر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ (الشمس: ١٢) انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة. "**
(رواه البخاري: ٤٩٤٢، ومسلم: ٢٨٥٥)

العذاب الذي تخوفنا به إن كنت يا صالح رسولًا حقًا. " (محمد الصابوني)

عندما أقبل صالح، رأى منظرًا فظيعًا، رأى ناقة الله مدرجة في دمائها، ممزقة الأوداج، مزهقة الروح، وسيف أشقاهم يقطر دمًا، وقلوب القبيلة ترقص فرحًا!!

فعلم صالح أن العذاب قد تحتم لا محالة، فتوعدهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥ ﴾ (هود: ٦٥) أي: " استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام، ثم ستهلكون!" (محمد الصابوني)

سمعت ثمود وعيدًا جديدًا أكيدًا، فما خضعوا لربهم، وما رجعوا عن بغيهم، بل إذ بالتسعة الذين تولوا قرار ذبح الناقة يتعاقدون، ويتعاهدون، ويحلفون الأيمان المغلظة ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ﴾ (النمل: ٤٩) أي: " لنقتلنَّ صالحًا وأهله ليلًا. " (محمد الصابوني)

﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩ ﴾ (النمل: ٤٩) أي: ثم نقول لولي الدم ما حضرنا مكان هلاكه، ولا عرفنا قاتله، ولا قاتل أهله، ونحلف على ذلك إنا لصادقون." (محمد الصابوني)

ولما كان القانون الإلهي ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ۝٣٨ ﴾ (الحج: ٣٨)

فدافع الله عن نبيه صالح أذى هؤلاء الرهط التسعة المجرمين، وانتقم منهم، فلما كمنوا لقتل صالح عالجهم الله بعقوبتهم، فكانوا سلفًا مقدمًا لقومهم إلى نار جهنم!!

﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا ﴾ (النمل:٥٠) أي: دبروا مكيدة لقتل صالح، ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ ﴾ (النمل: ٥٠) أي: " جازيناهم على مكرهم بتعجيل هلاكهم، وسماه مكرًا بطريقة المشاكلة (والمشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى). " (محمد الصابوني)

" قال أبو حيان: مكرهم ما أخفون من تدبير الفتك بصالح وأهله، ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون." (محمد الصابوني)

تصحيح: ذكر ابن كثير: " وأصبحت ثمود في اليوم الاول من موعد حلول العذاب وقد اصفرت وجوههم، ثم أصبحوا في اليوم الثاني وقد احمرت وجوههم، ثم في اليوم الثالث وقد اسودت وجوههم، كما أنذرهم صالح." (ابن كثير: ٢٠٠٢) وما ذكره ابن كثير – رحمه الله – لا يوجد له دليل في القرآن ولا في صحيح السنة؛ لذا صون كلام الله عنه أصوب.

فلمّا تمت مهلة الثلاثة أيام وقع الهلاك، وكان هلاكهم صيحة من فوقهم، ورجفة من تحتهم.

أما الصيحة فكانت صيحة مدوية هائلة قوية جاءتهم من فوقهم ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ ﴾ (القمر: ٣١) أي: فإنه يكفي لهلاكهم صيحة واحدة حتى تجعلهم لهشيم المحتظر (أي: فصاروا هشيمًا مفتتًا كيابس أوراق الأشجار إذا بلي وتحطم وداسته الأقدام)، وجعلها الله تعالى صيحة واحدة لهوانهم عنده.

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ ﴾ (الحجر: ٨٣ – ٨٤) أي: " أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا فما دفع عنهم عذاب الله ما كانوا يشيدونه من القلاع والحصون." (محمد الصابوني)

وأما الرجفة فكانت زلزلة مدمرة مهلكة جاءت من أسفلهم ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١ ﴾ (الأعراف: ٩١) أي: " أخذتهم الزلزلة الشديدة، فصاروا في منازلهم هامدين موتى بلا حراك. " (محمد الصابوني)

فاجتمعت عليهم الصيحة والرجفة، ففاضت أرواحهم، وزهقت نفوسهم، وسكنت حركاتهم، وتحقق الموعود!!

﴿ فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ ﴾ (الشمس: ١٤) أي: " فأهلكهم الله ودمرهم عن آخرهم بسبب إجرامهم وطغيانهم، قال الخازن: والدمدمة: هلاك باستئصال، والمعنى: أطبق عليهم العذاب طبقًا، فلم يفلت منهم أحد." (محمد الصابوني)

﴿ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ١٤) أي: " فسوى بين القبيلة في العقوبة، فلم يفلت منهم أحدًا، ولا صغير ولا كبير، ولا غني ولا فقير." (محمد الصابوني)

﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ (الشمس: ١٥) أي: " لا يخاف الله تعالى عاقبة إهلاكهم وتدميرهم، كما يخاف الرؤساء والملوك عاقبة ما يفعلون؛ لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل. " (محمد الصابوني)

كان هلاكهم شديدًا، حتى يخيل لمن رأى مصرعهم أن هؤلاء الهلكى لم يقيموا في نعمة قط! قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ (هود: ٦٨)

شاهد صالح مشهد مصرع قومه، فأدبر عنهم، ونعاهم إلى أنفسهم قائلًا على سبيل التفجع والتحسر عليهم: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩ ﴾ (الأعراف: ٧٩)

أي: لقد بلغتكم الرسالة، وحذرتكم من النهاية، وبالغت في نصحكم، ولكن غلب شأنكم العنيد على بغض الناصحين والعداء للمصلحين.

" قال الزمخشري: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ حكاية حال ماضية قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت، وكان قد نصحه حيًّا، فلم

يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة، يا أخي كم نصحتك! وكم قلت لك فلم تقبل مني." (محمد الصابوني)

ولله درّ صالح!! تفجع عليهم وهم الذين عاندوه وتنقصوه!! وهكذا الأنبياء.

هذه ثمود التي أضافت إلى سجل المشركين من بني آدم صفحة ملطخة بالظلم والوثنية، فكان حقًّا على الله إهلاكهم بالطاغية!

حكم زيارة ديار ثمود:

زيارة ديار ثمود في الحجر لها حالتان:

١- زيارة فيها مصلحة راجحة كالتفكر والاعتبار، أو التوثيق والعلم والتعليم، أو الوعظ والتذكير، وهذا النوع من الزيارة جائز – والله أعلم – بشرط أن يكون السائح أو الزائر لها على حالة من الخشوع والتفكر والاعتبار والبكاء، وليس لمجرد المتعة بمشاهدة المباني والقصور.

٢- زيارتها لمجرد التسلية والتعرف، وربما تعظيم ما كانوا عليه بدون اعتبار ولا تفكر، وهذا بلا شك مخالف للحديث الذي ذكرناه سابقًا، والراجح تُحرم مثل هذه الزيارة، والله أعلم.

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

صالح عليه السلام

تمهيد:

قصة صالح كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. إمهال لا إهمال:

الأمم الكافرة الظالمة لا يُعجّل الله عقوبتها المستحقة عليهم، وإنما يمهلهم حتى إذا تفاقمت جرائمهم وبغوا وعتوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

ويرد سؤال:

لِمَ لَمْ يُهلك الله الأمم الكافرة المتجبرة في عصرنا الحالي حتى الآن؟

الجواب: كان هلاك الأمم الكافرة الظالمة في الزمان الأول بعذاب من عند الله، فلما نزلت التوراة لم يهلك الله أمة هلاكًا عامًا إلا أصحاب السبت، وإنما جعل هلاك الأمم الكافرة الظالمة على أيدي المؤمنين.

وترد هنا مسألة مهمة، وهي: مسألة استبطأ نصر الله للمؤمنين:

وردت آيات كثيرة تبشر بنصر الله للمؤمنين، منها: قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨)، وقوله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (الصافات: ١٧٣)، ونحوها من الآيات.

فلمّا يسمع المؤمن المصدق بالقرآن مثل هذه الآيات، ثم يسقطها على الواقع، تقع الحيرة في قلبه لما يرى من غلبة الكفار والمنافقين، وأن الهزيمة تلحق بالمؤمنين!!

فيتسأل: **فمتى يأتي هذا النصر الموعود؟**

قال ابن القيم:

" لم يكتب الله الغلبة في الدنيا للكفار والمنافقين دائمًا، ولا للمؤمنين دائمًا، وإنما العبد له من الغلبة على عدوه بقدر ما معه من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨) فالعبد له من العزة بقدر ما معه من الإيمان .

وكذلك الدفع عن العبد يكون بحسب إيمانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ ﴾ (الحج:٣٨) فإن ضعف الدفع عنه يكون من نقص إيمانه.

وكذلك الكفاية هي بقدر الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (الأنفال: ٦٤)

وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١٩)، فإن حظ المؤمن من ولايته الله له يكون بقدر حظه من الإيمان.

فالتحقيق: أن الضمان حتى يكون المسلمون أعلين غالبين لعدوهم قاهرين، هو تحليهم بالإيمان والعمل الصالح. (ابن القيم بتصرف: ٢٠٠٢)

موازنة: الإمهال والاستدراج: **الإمهال:** تأخير الله معالجة القوم الكافرين بالعقوبة التي يستحقونها يسمى إمهالًا، حتى إذا أخذهم الله لم يفلتهم. **الاستدراج:** تأخير وقوع العقوبة المستحقة على المسلمين القائمين على المعاصي يسمى استدراجًا.

٢. خطورة الغنى بلا إيمان:

الغنى المفرط إن لم يكن معه إيمان ضابط له، وأخلاق كريمة تنظمه، يكون سببًا في طغيان صاحبه، ويحمله على البطر، وينسيه مصارع من سبقه من الظلمة المترفين المنعمين.

وهذه ثمود حملها الغنى المفرط البعيد عن كل خير إلى الإسراف على نفسها باقتراف الجرائم ونسيان ما جرى لسلفهم عاد من العذاب والتنكيل!!

٣. شؤم العادات السيئة:

العادات ثقيلة ثقل الجبال أو أشد، شب عليها الصغير، وهرم عليها الكبير؛ لذا يعد من أكبر موانع الاستجابة للحق اتباع عادات من يحسن بهم الظن من الآباء أو غيرهم.

وهذه ثمود كان المانع الأساسي لعدم استجابتهم لدعوة نبيهم هو اتباعهم عادة قومهم في عبادة الأصنام، فكان قولهم: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ (هود: ٦٢)

وهكذا جميع الأمم المكذبة ردوا دعوة رسلهم بسبب تقليد أسلافهم، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الزخرف: ٢٢)

٤. نعي صالح ثمود إلى أنفسهم:

مقام صالح أمام ثمود الهلكى يذكرنا بمقام رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أمام قتلى قريش يوم بدر، حيث خاطب – صلى الله عليه وسلم – أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال، وقف عليهم يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، **فقال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟! فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا؟!** فقيل له: تدعو أمواتًا؟ **فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون.**" (رواه البخاري:١٣١٥)

٥. سماع الأموات لكلام الأحياء:

هذه المسألة من المسائل التي اختلف فيها علماء السنة إلى قولين:

القول الأول: هو قول الجمهور: نفي سماع الأموات لكلام الأحياء؛ ودليلهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾ (النمل: ٨٠)

القول الثاني: هو قول فريق من العلماء: أن الموتى يسمعون في الجملة، ولا يسمعون في كل الأحوال، ودليلهم: قوله يوم بدر: " **هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا؟** (رواه البخاري:١٣١٥)

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**إن الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خفق نعالهم إذا انصرفوا.**" (رواه مسلم: ٢٨٧٠)

والراجح: قول الجمهور حيث أن الأدلة من الكتاب والسنة تؤكد على أن الموتى لا يشعرون بالأحياء، ولا يسمعون كلامهم، في كل الأوقات والأحوال.

وإن ثبت أنهم يسمعون في بعض الأحوال كما في الحدثيين السابقين، لا ينبغي أن يجعل أصلًا فيقال أن الموتى يسمعون.

وأجاب الجمهور عن حديث مخاطبة قتلى قريش يوم بدر بما قاله قتادة: " أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا." (علي الصلابي: ٢٠٠١)

أو أنه من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما حديث سماع الميت قرع نعال مشيعيه، فإنه استثناء من أن الميت لا يشعر بالأحياء، ولا يسمع كلامهم. والله أعلم.

٦. مجانبة الكفار:

ورد أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – مر بديار ثمود، وهو ذاهب إلى تبوك، وأنه نهى عن الشرب من ماء بئرهم، والدخول عليهم، فقال: **لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا تكون باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم." (متفق عليه)**

وكأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يرشدنا إلى مجانبة الكافرين ومفارقتهم، حتى وإن كانوا أموات، ومن باب أولى إن كانوا أحياء.

وهذا هو المعنى الدقيق للولاء والبراء: مولاة المؤمنين، ونصحهم، وحبهم، وحب من يحبهم، والذود عنهم.

والبراء من الكافرين مهما كانت العلاقة بهم، ومجانبتهم، وبغض كفرهم، والبعد عن اتباعهم، والحرص على عدم نشر معتقداتهم الباطلة.

٧. لطيفة:

" قال البربهاري: لكل نبي حوض إلا صالح النبي – عليه السلام – فإن حوضه ضرع ناقته.

قال محمد القحطاني: لم أجد دليلًا على هذه المسألة. " (محمد القحطاني: ١٤٠٦)

الخاتمة

هلكت عاد الأولى لكفرها، وبقى من نسلها عاد الثانية، وهي ثمود والتي كانت تسكن الحجر.

نهجت ثمود نهج سلفهم، فكفروا بربهم، بالرغم من النعم المتوافرة عليهم من زروع، وحرث، وماشية، وقصور.

فأرسل الله أخاهم في النسب صالحًا نبيًا، يعرفون نسبه، وفضله، وأمانته، أرسله إليهم لإفراده سبحانه بالتوحيد والعبادة.

دعاهم صالح دعوة كريمة لطيفة، فقابلت ثمود دعوته بالتشكيك والريبة، وطالبوه ببينة تشهد بصدقه.

أجاب صالح طلبهم رغبة منه في إيمانهم، فجاءتهم الآية البينة ناقة الله المعجزة، وبيّن لهم صالح أن هذه ناقة الله لكم، ومعجزة تشهد بصدقي عندكم، وحذرهم: فلا يمسها بسوء أحد منكم!

وقسّم الماء بينهم يومين: يوم لهم يشربون من ماء بئرهم، ويسقون زرعهم وماشيتهم، واليوم الثاني يوم للناقة، وفي يوم الناقة ترد جميع القبيلة على ضرعها، فتشرب لبنًا صافيًا خالصًا، فكانت الناقة معجزة ونعمة لجميع القبيلة.

مكثت ثمود هكذا مع الناقة حتى ضجرت منها، فتشاور ملؤهم الخبيث في شأنها، فقروا ذبحها!!

وبالفعل تولى قتلها رئيس القوم، وتمّت الجريمة الشنعاء تحت سمع القبيلة ومرأهم، ورضى منهم بذلك، بل ومباركة على ذبحها!!

فاستحقت ثمود الهلاك؛ لكفرهم بربهم، واستهزائهم بعذابه.

فعالجهم الله بصيحة مدوية من فوقهم، ورجفة مدمرة من تحتهم، فما أبقت منهم عين تطرف، إلا صالح ومن آمن معه.

وهكذا أُغلقت صفحة ثمود الكافرة بعذاب الطاغية من الله للأمة الفاجرة!

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١- إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٢- إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد على الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧م.

٣- عبد الرحمن بن ناصر السعدى، قصص الأنبياء، أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

٤- عبد الرحمن بن ناصر السعدى، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.

٥- على محمد الصلابي، السيرة النبوية، دار النشر والتوزيع، ٢٠٠١ م.

٦- محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٧- محمد على الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

٨- محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

الباب الثالث

أبو الأنبياء

إبراهيم عليه السلام

مقدمة الباب:

هذا باب أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، والذي يروي قصة خليل الرحمن إبراهيم، صاحب المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة السامية عند الله تعالى، فهو ثان رسول بعد محمد – صلى الله عليه وسلم – في المنزلة والقرب من الله، وهو أحد أولي العزم من الرسل، وأحد الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، وقد أعطاه الله هداه وصلاحه من قبل إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ (الأنبياء: ٥١)

وقد حاولت في هذا الباب أن أبسط قصة خليل الرحمن، وذلك من خلال فصلين:

الفصل الأول: (قصة إبراهيم عليه السلام) حيث تحدث عن: ديانة قوم إبراهيم، ودعوته لهم، فخص وعمّ، خصّ من الأقربين أباه، وعمّ جميع أهل زمانه حتى ملكهم الجبار العنيد النمرود، وذكر الفصل ما كان من قومه من صدّ وعناد حتى ألقوه في النار، وناقش الفصل قضية مهمة: هل وقع شك من إبراهيم؟

وذَكَرَ الفصل زواج إبراهيم بسارة، وهجرته بها إلى الشام ومصر، وذكر زواجه من هاجر المصرية، ومنة الله عليه بالغلام الحليم إسماعيل عليه السلام.

وذَكَرَ الفصل هجرته بأسرته الجديدة هاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز) بأمر ربه، وذكر النعم التي أجرها الله على أسرة خليله في أرض الحجاز، وناقش الفصل مَنِ الذبيح؟ وذَكَرَ مولد الغلام العليم إسحاق عليه السلام من زوجته البارة الصالحة سارة، وذكر قصتي: زواج إسماعيل، وبناء الكعبة كرمز للتوحيد.

وناقش الفصل هل بنى آدم أو الملائكة الكعبة قبل إبراهيم؟ وخُتِمَ الفصل بإظهار فضل إبراهيم في الملل الثلاث الكبرى: اليهودية، والنصرانية، والإسلام.

أما الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصة إبراهيم) تحدث عن أهم الثمار المستطابة في قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

إبراهيم أحمد قشطة

الفصل الأول

قصة

إبراهيم عليه السلام

تمهيد

" إبراهيم– عليه السلام – هو أبو الأنبياء، وهو الجد الأكبر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ أنه من ولد إسماعيل، وإسماعيل هو ابن إبراهيم، فيكون إبراهيم هو الجد الأعلى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد خصّ الله – تبارك وتعالى – إبراهيم عليه السلام بخصائص ومزايا فريدة، فجعله أبًا الأنبياء، وإماماً للأتقياء، وقدوة للمرسلين، واختاره (هو ورسولنا محمد) من بين الرسل والأنبياء بالخُلة، فهو خليل الرحمن ومنه تناسل الأنبياء، وتتابعوا عقب الأجيال، فجميع أنبياء بني إسرائيل من نسله؛ لأنهم من أولاد يعقوب بن إسحاق، وإسحاق هو ابن إبراهيم، فمن إبراهيم تتفرع شجرة النبوة، حتى خاتم المرسلين صلوات الله عليه وسلم. " (محمد الصابوني)

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ (العنكبوت: ٢٧)

قال ابن كثير: " وهذه خصلة سنية عظيمة، مع اتخاذ الله إياه خليلًا، وجعله أمامًا للناس، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا هو من سلالته، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده يعقوب، ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم." (ابن كثير: ١٩٨٧)

" وتأتي قصة إبراهيم خليل الرحمن في الترتيب القصصي للقرآن بعد قصة صالح عليه السلام، فقد جاء في سورة براءة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (التوبة: ٧٠) " (محمد هراس)

ديانة قوم إبراهيم عليه السلام:

قوم إبراهيم – عليه السلام – كانوا صابئة مشركين، وكان شركهم من جهة الكواكب والنجوم، حيث كانوا " يعتقدون أنها أجسام للملائكة، ويتخذون لها صورًا في الأرض من التماثيل والأصنام ويعبدونها؛ ليتقربوا بها إلى الله عز وجل ". (محمد هراس)

قال ابن القيم:

" الصابئة أمة كبيرة من الأمم الكبار، وهم منقسمون إلى مؤمن وكافر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ (البقرة ٦٥)

فذكرهم الله في الأمم الأربعة الذين تنقسم كل أمة منهم إلى ناج وهالك.

وذكرهم أيضاً في الأمم الستة الذين انقسمت جملتهم إلى ناج وهالك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ (الحج ١٧) " (ابن القيم ٢٠٠٢)

" وكانت شعائر عبادتهم مزيجًا من شتى الديانات، حتى أنه قلما يوجد دين من الأديان المعروفة إلا وللصائبة شبه به في بعض الشعائر." (محمد هراس)

قال العقاد: " ولا نعلم اليوم على التحقيق تفصيل عبادتهم في أيام الدعوة الإسلامية، ولكنهم كانوا ولا يزالون ينزهون الله غاية التنزيه، ويقولون إن الكواكب ملائكة نورانية، ولم تكن لهم هياكل ولا أصنام عند ظهور الإسلام، ولابد عندهم من مخلوق متوسط بين الروحانية والمادية يهدي الناس إلى الحق؛ لئن الروحانيات مخلوقة من كلام الله – جل وعلا – دعاها بأسمائها، فوجدت، ولا يصل كلام الله إلى الناس إلا بواسطة مخلوق بين النور والتراب ترفعه الرياضة والهداية، وتؤثره نعمة الله." (محمد هراس)

والذي يظهر أن قوم إبراهيم الصابئة كانوا بحران في العراق، فحران هي دار الصابئة.

دعوة إبراهيم لأبيه آزر:

" قصّ علينا القرآن الكريم دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأبيه، فقد كان أبوه مشركاً ممن يعبدون الأصنام، وأحق الناس بإخلاص النصيحة له إنما هو أبوه، ولهذا لم يألُ الخليل جهداً في تذكير أبيه ونصحه، وتحذيره من عذاب الله.

وقد كان إبراهيم في دعوته لأبيه مثالاً للولد البار الذي لا يريد إلا الخير بأقرب الناس إليه، فلم يقسُ عليه في الكلام، ولم يعنفه أو يزعجه، بل إنه خاطبه بكل أدب ووقار، وجادله بألطف عبارة وأحسن إشارة." (محمد الصابوني)، فقال له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾ (مريم: ٤٢) أي: لِمَ يا أبتِ تعبد صنمًا أصمًا لا ينفع ولا يضر؟

وقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ ﴾ (مريم:٤٣) أي: " يا أبت لا تحقرني، وتقول: إني ابنك، وأن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)، وفي هذا الخطاب من اللطف واللين ما لا يخفى، فلم يصفه بالجهل الشنيع والعناد الشديد، وإنما جاء بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، والذي وصلني لم يصل إليك.

وحَسُنَ بعد ذلك أن يقول له تعريضاً وليس أمراً: ﴿ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴾ (مريم: ٤٣)

أي: " اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك، وهو دين الله الذي لا عوج فيه." (محمد الصابوني)

ثم بين له أن هذا الشرك الذي هو فيه إنما هو من تسويل الشيطان عدو الإنسان اللدود: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ (مريم: ٤٤) أي: " لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان." (محمد الصابوني)

قال السعدي: " وفي إضافة العصيان لاسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة من أكبر الأسباب لنيل رحمته. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وقال القرطبي: " وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة؛ لئن من أطاع شيئًا في معصية الله فقد عبده." (القرطبي: ٢٠٠٢)

ثم ختم موعظته الرقيقة المشفقة لأبيه بالإعذار والإنذار، فقال: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ (مريم:٤٥) فحذره من سوء العاقبة، وهي الخلود في النار القاسية، بسبب اصراره على كفره، حتى جعل الشيطان له قرينًا، ويموت على ذلك!

وقد كرر إبراهيم لفظ ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ في حواره أربع مرات، وفي ذلك دليل على شدة الحب والرغبة في صون أبيه من العقاب، وإرشاده إلى الصواب.

قال الصابوني: " وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن؛ لأنه نبهه أولًا إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستبدال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق." (محمد الصابوني)

استمع آزر هذه الدعوة الصادقة اللطيفة، ولكن – يا للأسف – لم يقبلها وردها، بل وسخف عقل إبراهيم

وزجره وهدده فقال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ (مريم: ٤٦)

أي: " أتارك يا إبراهيم عبادة آلهتي ومنصرف عنها، قال البيضاوي: قابل أبوه استعطاف إبراهيم ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ بـ " يا بني." (محمد الصابوني)

" وقدم خبر المبتدأ **(راغب)** ولم يقل أأنت راغب، وذلك لأهمية المتقدم وشدة العناية به، وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة

إبراهيم عن آلهته، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها هذا بخلاف ما لو قال: أأنت راغب عن آلهتي؟ " (عبدالعزيز عتيق: ٢٠٠٢)

ثم حذره أبوه قائلًا: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ (مريم: ٤٦) أي: لئن لم تترك شتمك آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله وحده؛ لأرجمك بالقول والفعل ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ (مريم: ٤٦) أي : أقطعني وأطلّ هُجراني.

بهذه الجهالة المنقطعة النظير تلقى آزر دعوة ابنه الراقية المهذبة للهدى، وبهذه الغلظة الخشنة قابل آزر قول ابنه اللطيف المؤدب، ولا تتعجب فهكذا يكون حال الكفر مع الإيمان، وهكذا يكون حال القلب البعيد عن الإيمان وأفسده الطغيان.

وبالرغم من هذه الفظاظة قال إبراهيم الحليم: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ (مريم: ٤٧) أي: ستسلم من أن أتكلم معك بغلظة أو خشونة، وزاده خيرًا ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ (مريم: ٤٧) أي: سأكثر من الدعوة لك بالهداية والمغفرة؛ لعلمي بأن الله بي لطيفًا.

ولم يكن وعد إبراهيم السابق لذر الرماد في العيون، وإنما اتبع القول العمل، واستغفر ربه لأبيه مدة طويلة في أدعيته.

قال الأنصاري: " إن قلت الاستغفار للكافر حرام، فكيف وعد إبراهيم – عليه السلام – أباه بالاستغفار له مع أنه كافر؟

قلتُ: معناه سأسأل الله لك توبة، تنال بها مغفرته يعني الإسلام، والاستغفار للكافر بهذا الوجه جائز، كأنه يقول: اللهم وفقه للإسلام، أو تب عليه واهده، أو أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

ثم توقف إبراهيم عن الاستغفار له عندما تبين له أنه عدو لله، بل وتبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤)

وهذا التبرؤ يؤكد أنه لا صلة أساسًا بين مؤمن وكافر مهما كان النسب، فالولاية دائماً وأبداً للدين لا للنسب.

وشفقة إبراهيم الحليم على أبيه تجددت في الآخرة، فصح عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقول لك لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟! (أي: الأبعد عن رحمة الله) فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر، فإذا هو بذيح (أي: ذكر الضباع) متلطخ، فيؤخذ بقوائمه، فيلقى في النار.**" (رواه البخاري: ٣٣٥٠)

ما اسم أبي إبراهيم الحقيقي؟

اسم أبي إبراهيم الحقيقي هو آزر، وهذا ما دلَّ عليه القرآن، أما جمهور النسب – ومنهم ابن عباس – يقولون: أنّ اسم أبي إبراهيم تارح، وأهل الكتاب يسمونه تارخ.

قال ابن جرير: " والصواب أن اسمه " آزر " ولعلّ له اسمان علمان، أو أحدهما لقب، والآخر علم، والله أعلم." (ابن جرير: ٢٠٠٢)

دعوة إبراهيم لقومه:

مرَّ معنا أن قوم إبراهيم كانوا صائبة مشركين، وكان شركهم من جهة النجوم والكواكب، حيث عبدوها وعبدوا التماثيل والهياكل التي اتخذوها لها؛ لذا كانت دعوة إبراهيم التوحيدية دعوتين: دعوة تجهض عبادة النجوم والكواكب، والدعوة الثانية تجهض عبادة الاصنام التي اتخذوها لهذه الأجرام، وقد سلك إبراهيم في دعوة قومه ثلاث مراحل، هي:

المرحلة الأولى: إبراهيم يهدم عبادة الأجرام السماوية:

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا

كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ ﴾ (الأنعام: ٧٥ – ٧٨)

عند تأملنا للآيات السابقة نلحظ فطنة إبراهيم عليه السلام، وكيف استطاع أن يغلب قومه الكافرين بالحجة البينة بطريق الاستدراج في هدم عبادة الأجرام السماوية، فحينما غطى عليه الليل رأى كوكباً، " ولعله من الكواكب المضيئة؛ لئن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره" (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)، فقال لقومه بأسلوب المتهكم: ﴿ هَٰذَا رَبِّيۖ ﴾ أي أهذا يصلح أن يكون ربي؟

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب قال: ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ أي: فلا يصح عبادة إلهاً يحضر حيناً ويغيب أحياناً.

ثم انتقل بهم إلى القمر: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي: ظاهراً، ورأى نوره زايدًا عن نور الكوكب، فقال متهكماً ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ۖ أي: هذا القمر الذي تدعونه إلهاً أيكون ربي؟ ﴿ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ أي: غاب، قال

إبراهيم: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ (الأنعام: ٧٧) أي: ومن الذي يهديني من الضلال في حال غياب هذا الإله المزعوم؟!

وفي قول إبراهيم السابق منتهى الفطنة والذكاء، حيث أظهر لقومه ضرورة افتقار البشر لهداية إله لا يغيب، وبذلك يهيئهم إلى إعلان توحيد الإلهية لله.

ثم انتقل بهم إلى الشمس: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾ (الأنعام: ٧٨)

فقال متهكماً: يا لهذا الجرم! هو أكبر الأجرام، وأكثر ضوءاً ونفعاً!! فهذا الجرم أيصلح أن يكون ربي؟!

تهكم من جعل هذا الجرم إلهاً، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ سقط في أيديهم، وتحقق ما كان يسخر منه، وتقرر لكل ذي لب سليم أن هذه الأجرام السماوية لا يمكن أن تصلح أن تكون إلهاً، فكيف للإله أن يغيب ويترك ملكه؟!

وحسن في هذا الموضع أن ينهي إبراهيم المناظرة، والإتيان بالحقيقة الساطعة، وذلك بعد ان تهيأت النفوس لسماعها، فأعلن التوحيد الخالص: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ

وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٧٨ – ٧٩)

" وهذه مهارة من نبي الله إبراهيم واستدراجه للقوم حتى أقام عليهم الحجة، ووضع أيديهم على مواطن الضعف منهم، (حيث) انتقل بهم من كوكب إلى كوكب، وأراهم أن موقفه منهم موقف الباحث حتى لا ينفروا من مجادلته، وأراهم أن الكواكب على اختلافها قوة وضعفاً لا يصلح واحد منها أن يكون إلهاً معبوداً لأنها تغيب وتحضر. " (محمد هراس)

فكان هذا المقام الأول من مقامات دعوة إبراهيم لقومه.

لطيفة: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ قال عباس حسن: " اسم الإشارة الأول (هذا) مذكر، مع أن المشار إليه – وهو الشمس – مؤنث، فحق الإشارة إليها أن تكون باسم الإشارة للمؤنث، مثل: هذه.

ولكن جعل المبتدأ مذكر مثل الخبر لأنهما عبارة عن شيء واحد، ولصيانة الرب عن شبهة التأنيث، ولو قيل: هذه ربي؛ لقال الذين في قلوبهم مرض أقوالاً كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان؛ لذلك تراهم يقولون في صفة الله (علّام)، ولا يقولون: علّامة، وإن كان العلامة أبلغ، احترازاً من علامة التأنيث." (عباس حسن)

هل شك إبراهيم عليه السلام؟

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الأنعام: ٧٥ – ٧٨)

" ظاهر هذه الآيات يفيد أن إبراهيم – عليه السلام – نظر في هذه الأجرام العلوية التي كان يعبدها قومه؛ ليمتحن صلاحيتها للإلهية، فلما تبين له بطلان إلهيتها بسبب أفولها وغيابها أعلن البراءة منها، ومعنى ذلك أنه كان في شك من أمرها أولاً، ومعلوم أن الشك أخو الكفر، فقد أخبر الله عن الكفار أنهم قالوا لرسلهم: ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ (هود: ٦٢)، فعبروا عن كفرهم بما جاءت به الرسل – عليهم الصلاة والسلام – بالشك والارتياب فيه." (محمد هراس)

" فكيف يعتري الشك مقام خليل الرحمن مع ما هو معلوم أن الأنبياء – عليهم السلام – معصومون من الكفر قبل الرسالة وبعدها،

وأنهم يُنَشؤون على الفطرة السليمة التي هي الدين القيم والتوحيد الخالص؟ " (محمد هراس)

قال ابن كثير:

" وقد اختلف المفسرون في هذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾. (ابن كثير: ١٩٨٧)

ثم قال ابن كثير: " والحق أن إبراهيم في هذا المقام كان مناظرًا لقومه، مبينًا بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام." (ابن كثير: ١٩٨٧)

" وقال صاحب صفوة البيان عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ أنه قال هذا على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع عباد الأصنام والكواكب؛ ليكر عليها الإبطال، ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال. " (محمد هراس)

قال السعدي: " وهذا الذي ذكرنا في تفسير الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه

الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال أنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

قال هراس: " ولكن إذا قيل أن هذا الكلام منه كان على وجهة النظر والاستدلال يبقى الإشكال (هل شك إبراهيم؟)

وأجابوا عن هذا الإشكال أن هذا كان قبل النبوة.

" ولكن هذا لا يحل المشكلة، إذ هو تسليم بحصول الشك من إبراهيم إلا أنه كان قبل النبوة! وهذا مستحيل في حق الأنبياء! " (محمد هراس)

" وأحسن ما يمكن أن يقال في هذا الصدد: أن إبراهيم – عليه السلام – أراد اليقين بضم نظر العقل إلى نور الفطرة ، فأخذ يسائل نفسه كلما طلع كوكب من هذه الكواكب: أهذا ربي كما يدعي ذلك أبي وقومي؟

فيتجلى له الحق واضحاً حين يراها تتهاوى واحداً بعد الآخر، وتغيب وراء الأفق البعيد، فاطمأنت عند ذلك نفسه، وازداد يقينه بما كان قد عرفه قبل ذلك عن طريق الإلهام والفطرة، فهو كقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ (البقرة: ٢٦٠)

فإبراهيم – عليه السلام – لم يكن يشك في قدرة الله – عز وجل – على إحياء الموتى، ولكنه أراد أن يرى ذلك عياناً؛ ليتضح له عين اليقين مع علم اليقين. " (محمد هراس)

وقد ثبت من حديث أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي.** " (رواه البخاري: (٣٣٧٢)، ومسلم: (١٥١))

" قال الحافظ عند كلامه على قول النبي صلى الله عليه وسلم: " **نحن أحق بالشك من إبراهيم**" حكى بعض علماء العربية أن أفعل ربما جاءت لنفي المعنى عن الشيئين، نحو قوله تعالى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٍ﴾ الدخان: ٣٧) أي: لا خير في الفريقين، ونحو القائل: الشيطان خير من فلان، أي لا خير فيهما، فعلى هذا المعنى قوله: **نحن أحق بالشك من إبراهيم**" لا شك عندنا جميعًا. " **(خالد السبت: ١٤٢١)**

المرحلة الثانية: دعوة إبراهيم للنمرود:

" المتأمل في حياة الخليل إبراهيم – عليه السلام – يجدها كلها سلسلة متصلة الحلقات في النضال والثورة على عقائد قومه ومعبوداتهم. " (محمد هراس)

وتوج ذلك النضال ضد الشرك وأهله بمحاجته الطاغية النمرود (ويقال: النمروذ) ملك الكنعانيين، والقرآن لم يصرح باسمه، وإنما ذكره المفسرون عند تفسيرهم لقصة الذي حاج إبراهيم.

ولقد كان هذا الملك (النمرود) يدعي الربوبية، فلما دعاه إبراهيم – عليه السلام – لترك هذا الكفر، وعبادة الله، تجبر وحاج إبراهيم في ربه.

ويذكر الطبري: " أن إبراهيم خرج مع الناس لجلب الميرة (أي: المؤونة) من النمرود، فكان كلما وصل إليه رجل سأله من ربك؟ فيقول: أنت، فلما وصل إبراهيم – عليه السلام – سأله النمرود من ربك؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت، وجرت بينهما المناظرة المعروفة. " (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

بينما ذكر ابن كثير، وهو الصواب: " أن إبراهيم قد دعا النمرود للإيمان بالله – تعالى – فأخذته العزة بالإثم، وأصر على ادعاء الربوبية. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: ألم يصلك يا محمد نبأ الذي تجرأ وجادل إبراهيم فيما لا يقبل التشكيك، وهي وحدانية ربوبيته، وتجرأ ونازع

رب العالمين في رداء ربوبيته، ومن غريب أمر النمرود أن الذي حمله على ذلك أن آتاه الله الملك، وكان المفترض أن يخضع للذي منحه هذا الملك العظيم.

صدع إبراهيم أمام هذا الطاغية بالتوحيد فقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " (ربي) هو المنفرد بأنواع التصرف، وخصّ منه الإحياء والإماتة؛ لكونهما أعظم أنواع التدابير. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ولك أن تتخيل حجم الخوف والهلع الذي يصيب أي إنسان مكان إبراهيم! خاصة إن عرفت أن هذا الطاغية كان من الأربعة الذين ملكوا الدنيا، فقد ذُكر أن الذين ملكوا الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان عليه السلام وذو القرنين، والكافران: النمرود وبختنصر.

فيا لها من جرأة في الصدع بالحق أمام هذا الطاغية وأي طاغية، طاغية ترتعد فرائص الجبابرة عند سماع اسمه، فضلاً عن مجادلته ومعارضته.

وإن تبحث عن سبب هذه الجرأة تجدها قوة الإيمان وحرارته التي أذابت كل خوف وجعلت من قلب إبراهيم قلباً مطمئناً بوعد الله.

غضب الطاغية من جرأة إبراهيم، فقال بحنق وعتو: ﴿ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) " ولم يقل (النمرود): أنا الذي أحيي وأميت؛ لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله، ويصنع صنعه. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ويقال: " أتى برجلين قد تحتم قتلهما، فإذا يأمر بقتل أحدهما، ويعفو عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا، وأمات الآخر." (حافظ الحكمي: ١٩٩٩)

لم يشغل إبراهيم نفسه بالكشف عن مغالطة هذا الملك الجاهل وتلبيسه، ولكنه انتقل من توه إلى حجة أخرى لا يستطيع لها دفعاً، ولا يملك معها إلا التسليم والإذعان، فقال إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " إذا كنت تدعي الألوهية، وأنك تحيي وتميت كما يفعل رب العالمين جل جلاله، فهذه الشمس تطلع كل يوم من المشرق بأمر الله ومشيئته، فأطلعها من المغرب بقدرتك وسلطانك ولو مرة واحدة." (محمد الصابوني)

﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " أُخرس هذا الفاجر بالحجة القاطعة " (محمد الصابوني) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ (البقرة: ٢٥٨) أي: " لا يلهمهم الحجة والبيان في مقام المناظرة والبرهان بخلاف أوليائه المتقين." (محمد الصابوني)

قال السعدي: " وفي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل. " (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

متى وقعت هذه المناظرة؟

ذُكر أن هذه المناظرة بين إبراهيم والنمرود كانت يوم خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع به من قبل، فكانت بينهما هذه المناظرة.

والذي يظهر أن هذه المناظرة حدثت قبل إلقاء إبراهيم في النار، ويحتمل أن مناظرة إبراهيم للنمرود كانت سببًا محفزًا لإلقاء إبراهيم في النار مع إلحاقه التفتيت والهوان للأصنام كما سيأتي، والله أعلم.

كيف كانت نهاية النمرود؟

ذُكر أن بعوضة دخلت في منخره، وبقيت تعذبه سنوات عدة، حتى أهلكه الله.

والذي يظهر أن هذه الرواية من الإسرائيليات؛ لذا صون كلام الله عنها أسلم، أما نهايته لا نشك بأنه نهاية مفجعة مثل من ادعى الربوبية، مثل: فرعون، والمسيح الدجال، وغيرهما، والله أعلم بها.

وهذا هو المقام الثاني من مقامات دعوة إبراهيم لقومه.

المرحلة الثالثة: إبراهيم يهدم عبادة الأصنام:

ذكرنا المقام الأول والثاني من مقامات دعوة إبراهيم لقومه، وهي إبطاله عبادة الأجرام السماوية، بعدما ناظرهم مبينًا خطاءهم وضلالهم في عبادة هذه الأجرام السماوية، وذكرنا جانبًا مضيئًا قويًا في دعوة إبراهيم لقومه وهي مناظرة الملك الكافر العنيد النمرود، وفي هذا المقام الثالث يدعو إبراهيم قومه دعوة قوية حارة، فجاهر قومه وأباه بالعداوة، قائلًا لهم في صرامة وجرأة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ (الممتحنة: ٤)

واستخف بالأصنام وأخذ يهدم عبادتها، فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الشعراء: ٧٠) فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (الشعراء: ٧١) فلم يكتفوا بقولهم: نعبد أصنامًا، " وإنما بسطوا الكلام ابتهاجًا منهم بعبادة الأصنام، وافتخارًا بمواظبتها منحرفين عن الجواب المطابق المختصر. " (ابن الناظم:٢٠٠١)، فقال متعجبًا: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ

ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ (الشعراء: ٧٢ – ٨١)

لطيفة: قال زكريا الأنصاري: " زاد (هو) عقب الذي في الإطعام والسقي؛ لأنهما مما يصدران من الإنسان عامة، فيقال: زيد يطعم ويسقي، فذكر "هو" تأكيدًا وإعلامًا بأن ذلك منه تعالى لا من غيره، بخلاف الخلق، والموت، والحياة، لا تصدر من غير الله." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٢)

واستمر إبراهيم يهدم عبادة الأصنام، وينزع حبها من قلوب قومه، " ولما حاجه قومه في الله عز وجل وخوفوه عاقبة كفره بآلهتهم وشتمه لها، قال لهم موبخًا ومسفهًا: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ (الأنعام: ٨٠ – ٨١) " (محمد هراس)

أي: أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته، وقد بصرّني وهداني إلى الحق، وأنا لا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله؛

لأنها لا تبصر ولا تسمع، وليس قادرة على شيء مما تزعمون إلا إذا أراد الله أن يصبني شيء مكروه فيكون، وكيف أخاف آلهتكم وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء. " (محمد الصابوني)

ولم يكتف إبراهيم بهذه الدعوة القولية الجريئة إلى ترك عبادة الأصنام، بل بلغت به جرأته، وبيع نفسه لله أن كاد لهذه الأصنام، فاستغل فرصة خروج قومه إلى عيد لهم، فلم يخرج معهم متعللًا بـ ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ (الصافات: ٨٩)

فما أن غادروا المدينة وخلا المكان، ذهب مسرعًا إلى آلهتهم المزعومة، ووقف أمامهم وخاطبهم مستهزئًا: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ (الصافات: ٩١) أي: ألا تأكلون من هذا الطعام الموجود أمامكم؟ وقد يقال مَنِ الذي جاء بهذا الطعام؟ قد يحتمل ما قاله ابن كثير: " وذلك أنهم كانوا قد وضعوه بين أيديهم طعامًا قربانًا لتبارك لهم فيه. " (ابن كثير: ١٩٨٧)

ولما عجزت الأصنام عن إجابته قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ (الصافات: ٩٢) أي: ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟

" قال أبو حيان: وعَرْض الأكل عليهم واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء؛ لأنها منحطة عن رتبة عابديها إذ هم يأكلون وينطقون بخلافها. " (محمد الصابوني)

عند ذلك ﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الصافات: ٩٣) أي: " فأقبل على الأصنام مستخفيًا يحطمها بيمينه بفأس كان معه، قال البيضاوي: وتقيده باليمين للدلالة على قوته، وقوة الآلة تستدعي قوة الفعل، وقال القرطبي: خصّ اليمين بالضرب؛ لأنها أقوى والضرب بها أشد. " (محمد الصابوني)

﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأنبياء: ٥٨) أي : " كسّر الأصنام حتى جعلها فتاتًا وحطامًا." (محمد الصابوني)

لطيفة: هل الصنم الذي تركه إبراهيم كان كبيراً حقاً؟!

لا، لذا تأمل هذا الاحتراز الذي قاله: ﴿ كَبِيرًا لَّهُمۡ ﴾ فكل ممقوت عند الله لا يُطلق عليه كبيراً، وأي لفظ من ألفاظ التعظيم لا تكون كذلك إلا على وجه إضافتها لأصحابها، ومن ذلك كتابة الرسول إلى كسرى قال: عظيم الفرس وقيصر قال: عظيم الروم؛ لذلك لم يقل إبراهيم: كبيراً من أصنامهم، بل قال: ﴿ كَبِيرًا لَّهُمۡ ﴾.

عندما رجع القوم إلى مدينتهم، وكانت من عاداتهم أن أول ما يقومون به عند دخولهم مدينتهم المبادرة إلى أصنامهم متبركين، فرأوا منظرًا مهولًا، رأوا الآلهة قطع متناثرة إلا صنمهم الكبير.

لم يراعهم منظر أشد من هذا المنظر، فقالوا بهذيان وهستيرية: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ ﴾ (الأنبياء: ٥٩)

أي: " إنَّ مَنْ حطم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم؛ لجراءته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير". (محمد الصابوني)

وتراجعوا فيما بينهم: ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ ﴾ (الأنبياء: ٦٠)

أي : تخاطبوا فيما بينهم أنَّ إبراهيم هو الذي كان كثيرًا ما يعيبهم ويتوعدهم بقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ۝٥٧﴾ (الأنبياء: ٥٧) فلعله هو الذي حطم الآلهة.

وهكذا انحصرت التهمة في إبراهيم، فقالوا في حنق وغضب: ﴿ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ۝٦١ ﴾ (الأنبياء: ٦١)

أي: قال أشراف القوم: احضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه، والغرض أن تكون محاكمته علانية؛ ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر.

وهذا ما أراده إبراهيم؛ ليرى الناس الحق ويشاهدوه، فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة البينة على بطلان ما هم عليه، كما قال موسى – عليه السلام – لفرعون: ﴿ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩ ﴾ (طه: ٥٩)

وفي فعل إبراهيم هذا من بيع النفس لله ما لا يخفى!

وبالفعل أحضروا إبراهيم وواجهوه بالتهمة ﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٢)

أي: هل أنت الذي حطم هذه الأصنام يا إبراهيم؟ وغرضهم من هذا السؤال التقرير بأنه هو الفاعل.

رد عليهم إبراهيم مستهزئًا: ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء: ٦٣) أي: حطمها هذا الصنم الكبير.

لطيفة: كرر إبراهيم لفظ " **فعله** " وذلك تعريضاً بغباوة السائلين من قومه، وبأن الدافع على تكسير الأصنام هو غيظ إبراهيم من كبيرهم هذا الذي يخصونه بتعظيم أكثر. (عبد العزيز عتيق: ٢٠٠٠)

تفاجأ القوم برد إبراهيم، ووجدوا أنفسهم أمام معضلة في غاية الصعوبة، وهي تأكيدهم قوله بأنه لم يفعل ذلك، وإنما الفاعل هو كبير الأصنام، وبالتالي كيف تتصارع الآلهة حتى يغلب بعضها بعضًا؟! وهل هناك إله أعظم من إله؟ وهل؟ وهل؟ وهذه التساؤلات ستوصل في النهاية إلى نتيجة مفجعة لهم: أن هذه الأصنام ليست بآلهة!!

وفي أثناء تفكيرهم في حلّ هذه المعضلة إذ بالموقف يزداد عليهم صعوبة، عندما قال إبراهيم: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٣)

فعدم قدرتهم على النطق بالذي حدث، يدلّ على أنها ليست آلهة، وإنما هي جمادات فحسب، فالزمهم الحجة الواضحة البينة، فرجعوا إلى

عقولهم وفكروا بقلوبهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ (الأنبياء: ٦٤)

فاعترفوا على أنفسهم أن هذه الأصنام جمادات ليست بآلهة، ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى باطلهم وكفرهم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأنبياء: ٦٥)

أي: "قالوا في لجاجهم وعنادهم: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم، ولا تجيب! فكيف تأمرنا بسؤالهم، وهذا إقرار منهم بعجز آلهتهم." (محمد الصابوني)

حينئذ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم، فقال موبخًا لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ (الأنبياء: ٦٦) أي: أتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ (الأنبياء: ٦٧) أي: " قبحًا لكم ونتنًا للأصنام التي عبدتموها من دون الله. " (محمد الصابوني)

وجد قوم إبراهيم أن الغلبة في هذا الحوار لإبراهيم، فعدلوا عنه إلى استخدام قوتهم وبطشهم – كشأن جميع أهل الباطل – فقالوا : ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنبياء: ٦٨) أي: " احرقوا إبراهيم بالنار انتقامًا لآلهتكم ونصرة لها إن كنتم ناصريها حقًا. " (محمد الصابوني)

إبراهيم يُلقى في النار:

كان عقاب إبراهيم – عليه السلام – على ما ألحقه بآلهتهم المزعومة من التفتيت والهوان، أن أوقدوا نارًا عظيمة وألقوه فيها!!

ولله درُّك يا إبراهيم صابرًا، فقد أُختبر – عليه السلام – اختباراً عصيباً، حيث وجد نفسه في موقف مهول، وجد نفسه محاطًا بنار عظيمة! فألجأ ظهر إلى الذي لا يغفل ولا ينام، لجأ إلى الله ذي القوة التي لا تطال، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل!!

خرجت هذه الاستغاثة من قلب مظلوم ملهوف، فأنى لا يُستجاب لها، فجاء الأمر الإلهي إلى النار ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنبياء: ٦٩)

إن قيل: كيف خاطب الله النار مع أنها لا تعقل؟

قال الأنصاري: " خِطاب التحويل والتكوين، لا يختص بمن يعقل، قال تعالى: ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ (سبأ: ١٠)، وقال: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ (فصلت: ١١) (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وزاد الله تعالى كلمة﴿وَسَلَـٰمًا﴾ بقصد المبالغة في حفظ إبراهيم، وقال ابن عباس: " لو لم يقل الله: ﴿وَسَلَـٰمًا﴾ لأذى إبراهيم بردها. " (القرطبي: ٢٠٠٢)

﴿ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ ﴾ (الصافات: ٩٨)
أي: أرادوا المكر بإبراهيم واحتالوا لإهلاكه فنجيناه من النار، وجعلنهم الأذلين المقهورين؛ لأنه لم ينفذ فيه مكرهم. " (محمد الصابوني)

لطيفة:

قال تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨ ﴾ (الصافات: ٩٨) وفي سورة الأنبياء قال: ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ ﴾ (الأنبياء: ٧٠)، فما السر؟

قال الأنصاري: " في الصافات: تقدمه " **قالوا ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم** " فأججوا نارًا عظيمة، وبنوا بنيانًا عظيمًا، ورفعوا إبراهيم إليه، ورموه منه إلى أسفل، فرفعه الله إليه، وجعلهم في الدنيا من الأسفلين، وردَّهم في العقبى أسفل سافلين، فناسب ذكر الأسفلين.

أما في سورة الانبياء ما تقدمه أن إبراهيم كادهم، وأنهم كادوه، وأنه غلبهم في الكيد، فخسرت تجارتهم حيث كسر أصنامهم، ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فناسب ذكر الأخسرين. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وهكذا نجّى الله إبراهيم من كيدهم وشرهم بمعجزة باهرة!!

هذا هو خليل الرحمن إبراهيم الذي ضرب القدح المعلى في التضحية والإخلاص، وبيع النفس رخيصة لله ، واحتمال كل آذى، حتى وإن كان التحريق بالنار، فليس عجيبًا إذن ما أثنى الله به عليه في

كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النحل: ١٢٠- ١٢٣)

فقد اتخذ الله إبراهيم خليلًا، وجعله أمة (أي: أمامًا وقدوة)، وجامعًا لجميع خصال الحق والخير، وحنيفًا (أي: مائلًا عن كل دين باطل إلى الدين الحق المستقيم)، وجعله في الآخرة من أصحاب الدرجات السامية، وفي أعلى مقامات الصالحين، وأمر النبي الأمي محمد – صلى الله عليه وسلم – باتباع ملته الحنيفية السمحة.

تصحيح: يذكر بعض المفسرين: أنَّ جميع النيران على وجه الأرض بعدما قال الله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ فقدت خاصية الإحراق! وما ذكروه فيه نظر؛ لئن المنادى في الآية " **يا نار**" نكرة مقصورة، فالمخاطب فيها هذه النار دون غيرها؛ **لذا الصحيح** أن خاصية الإحراق سلبت من هذه النار فقط معجزة لإبراهيم، والله أعلم.

زواج إبراهيم – عليه السلام – بسارة:

عندما شب إبراهيم عليه السلام، وصار في مبلغ الرجال، تزوج بامرأة طيبة اسمها سارة، عاش معها حياة أسرية هادئة، فكانت نعم

الزوجة الصالحة المعينة لزوجها على مشاق الحياة، ولما أُرسل إبراهيم عليه السلام آمنت به، وتحملت معه متاعب الدعوة، وواسته بكلامها، وهونت عليه مما يلاقي من قومه.

تنويه: ذهب بعض أهل العلم إلى نبوة ثلاث نسوة: سارة وأم موسى ومريم، ولكن الصحيح والذي عليه الجمهور إنهن صديقات رضي الله عنهن وأرضاهن.

هجرة إبراهيم – عليه السلام – إلى الشام ثم مصر:

خرج إبراهيم – عليه السلام – من بين أظاهر قومه مهاجراً في سبيل الله، ومعه زوجته المؤمنة سارة وابن أخيه المؤمن لوط إلى الشام، قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ ﴾ (العنكبوت: ٢٦)

ويعد إبراهيم – عليه السلام– أول مهاجر في سبيل الله، ويعد محمد – صلى الله عليهما وسلم – أعظم مهاجر في سبيل الله،.

قال المفسرون: " هاجر من سواد العراق إلى فلسطين في الشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره. " (محمد الصابوني)

والذي يبدو أن هذه الهجرة قد حدثت بعد خروج إبراهيم من النار بسلام، والله أعلم.

وصل ثلاثتهم (إبراهيم وسارة ولوط) إلى الشام، ومكثوا فيه ما شاء الله أن يمكثوا، ثم ارتحل إبراهيم وسارة إلى مصر، وبقي لوط في الشام.

وأثناء سير إبراهيم وسارة في أرض مصر، رآهما بعض خواص ملك مصر، فأسرع إلى ملكه قائلاً: إن ها هنا – في بلادك – رجل معه امرأة من أحسن الناس، فقد كانت سارة من أجمل النساء على الإطلاق.

ولما حضرت أمام الملك ووقع نظره عليها – وكان جباراً عنيداً – أرادها على نفسها، وها هي القصة كما جاءت في الصحيح:

" بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، وسأل عنها، فقال: من هذه قال: أختي.

فأتى سارة، قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق.

ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر.

فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده : مهيما (أي: ما خبرك؟)، **قالت: ردّ الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر."** (رواه البخاري:(٣٣٥٨)، ومسلم: (٢٣٧١))

تساؤلات:

(١) لِمَ أخبر إبراهيم عن سارة أنها أخته؟

لأنهم لو علموا أنها زوجته سيقتلونه ليتخلصوا منه.

(٢) قول إبراهيم : " **ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك.** " **هل يتعارض مع أن لوطاً كان مؤمناً معهما؟!**

ليس هناك تعارض إن شاء الله؛ لئن إخبار إبراهيم ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك إنما يقصد في أرض مصر، ولوط – عليه السلام – بقي في الشام.

(٣) ما المقصود بأخدمها هاجر؟

" أي: وهبها لها لتخدمها؛ لأنه أعظمها أن تخدم نفسها. " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

قال الكحلوت: " وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة لإبراهيم صلى الله عليه وسلم، وفيه مشروعية أخوة الإسلام، وجواز قبول صلة الملك الظالم، وقبول هدية المشرك، وإجابة الدعاء بإخلاص النية، وكفاية الرب لمن أخلص الدعاء بعمله الصالح، وفيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

زواج إبراهيم – عليه السلام – بهاجر:

ذكرنا أن ملك مصر أخدم هاجر لسارة، ولما كانت سارة زوجة إبراهيم عاقراً، فوهبته هاجر؛ لتكون له زوجة؛ لعل الله تعالى يرزقه منها الولد.

وبالفعل تزوج إبراهيم هاجر، وأنعم الله عليه بغلام حليم سماه إسماعيل، وهب الله الكريم خليله إبراهيم هذا الغلام على كبر سن إبراهيم، فكانت فرحته به لا توصف.

هجرة إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز):

مكث إبراهيم قرير العين مع أسرته الجديدة في الشام ما شاء الله أن يمكث، حتى جاءه الأمر الإلهي بأن يخرج بهاجر وإسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز)، وكانت بلاد الحجاز في ذلك الزمن السحيق مكاناً موحشاً قفراً، حيث لا يوجد به ساكن ولا مسكن، لا زرع ولا نبات.

ورغم ما في هذا الأمر من الصعوبة والمشقة على نفس إبراهيم إلا أنه انقاد لأمر ربه، ولم ينفذ وحسب، وإنما ذهب إبراهيم راضيًا النفس بزوجته الثانية هاجر وابنه إسماعيل إلى حيث أمره الله إلى أرض فاران (الحجاز)،

وما أن وطئت أقدامهما أرض هذا المكان، حتى همّ إبراهيم بالرحيل وتركهما بمفردهما، وبشفقة الأب، ورحمة الزوج زودهما بسقاء فيه ماء، وجراب فيه تمر، وكان هذا كل ما في وسع إبراهيم فعله لهما!!

ولمّا ولى إبراهيم ظهره راحلاً تعلقت هاجر بثيابه قائلة: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا؟ وليس معنا ما يكفينا! وليس ها هنا أحد؟!

لم يجبها، ومضى في طريقه!!

فلمّا ألحت عليه – وهو صامت لا يجيبها – قالت له: آلله أمرك بهذا؟

هاجر الزوجة المؤمنة توقعت بفراستها أن هذا العمل الخارج عن دائرة الالتئام الأسري ما يكون إلا بأمر من الله؛ لذا سألت زوجها هذا السؤال؟!

وكما توقعت هاجر، أجاب إبراهيم: نعم!

ترك إبراهيم فلذة كبده إسماعيل، وأنيس روحه هاجر في صحراء الحجاز القاحلة، ولما تولى عنهما، وقف بحيث لا تراه زوجته هاجر، رافعًا أيدي الضراعة، ومبتهلًا ذليلًا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧ ﴾ (إبراهيم: ٣٧)

وقد استجاب الله دعاء خليله إبراهيم، فحفظ أسرته، وأنعم عليهما بأن جعل هذا المكان القفر الموحش، مثابة للناس وأمناً، يأتيه الناس من كل فج عميق، كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

لطيفة: قال إبراهيم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي ﴾، ولم يقل: " أسكنت ذريتي" **فما أفاد حرف الجر من؟** أفاد التبعيض، إذ ليس كل ذريته، بل هو إسماعيل، أما إسحاق بقي بالشام.

وقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ قال ابن عباس وغيره: " لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم، ولكن قال: " من الناس " فهم المسلمون. " (محمد الصابوني)

نِعَمُ اللّه على هاجر وإسماعيل في أرض الحجاز:

استسلمت هاجر لأمر ربها، ومكثت مترقبة خائفة في هذا المكان الموحش بلا أنيس أو جليس، وكلما أحست بالعطش أو الجوع، أخذت تشرب من الماء، وتأكل من التمر اللذين تركهما لها زوجها إبراهيم، حتى نفذا، فعطشت عطشاً شديداً، وجاعت جوعاً أكيداً.

أما رضيعها فلم يكن أحسن حالاً منها، فأخذ الجوع والعطش يلويه لَوْلياً شديداً.

هاجر الوحيدة في هذا المكان القفر أكثر ما فزعها منظر رضيعها، حتى أنساها ما بها من جهد وتعب وجوع وعطش، فأخذت تهرول يميناً ويساراً، لعلها ترى إنساناً، أو تجد مغيثاً.

فصعدت أقرب جبل إليها بالرغم من شدة الإعياء الذي ألّم بها، صعدت الجبل المعروف اليوم بجبل الصفا، صعدته وعينها مشتتة بين رضيعها الموجود في بطن الوادي، وبين قمة الجبل، حتى وصلت أعلى الجبل بعد جهد ومشقة، فالتفتت ذات اليمين وذات اليسار فلم تر أحداً، فنزلت من أعلى الصفا مسرعة وجلة على رضيعها أن يمسه سوء، حتى وصلت بطن الوادي حيث يوجد رضيعها، فما أن وصلت باطن الوادي حتى رأت جبلاً آخر، وهو المعروف الآن بجبل المروة، فصعدت عليه، غير أبهة بتعبها وجوعها وعطشها، وما أن وصلت إلى أعلى الجبل حتى جالت بنظرها يمنة ويسرة، ولكنها لم تعثر على شيء أيضًا، ولشدة خوفها على رضيعها كررت ذلك العمل الشاق سبع مرات، لعلها تجد مغيثاً.

قال صلى الله عليه وسلم:" **فذلك سعى الناس بينهما** ". (رواه البخاري: ٣١٨٤)

ودائماً الفرج يأتي عند اشتداد الكرب، والعسر لا بد أن يتبعه اليسر، فلما تمت هاجر سبع مرات في الصعود والنزول، إذ بها تسمع صوتاً يقول: قد جاءك الغوث، فإذا بملك (وهو جبريل عليه السلام) عند ابنها **فقال لها جبريل: " من أنتِ؟ قال: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، قال: وكلكما إلى كافٍ.**" (رواه البخاري: ٣٣٦٤)، فبحث في الارض بعقبه أو جناحه، فظهر الماء.

رأت هاجر الجوعى والعطشى الماء، رأت نجاتها ونجاة رضيعها، فلا يمكن وصف فرحتها، فحمدت ربها، التي أحسنت فيه ظنها.

ومن شدة فرحها وحرصها على هذا الماء، أخذت تحوطه لئلا يسيح، وتغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **يرحم الله أم إسماعيل لولا أنها عجلت؛ لكانت زمزم عيناً معيناً.**" (رواه: البخاري: (٣٣٦٤)، وأحمد: (٣٣٩٠) واللفظ له) أي: لو تركت هاجر زمزم لم تحوطها ولم تغرف منها؛ لصارت زمزم عيناً جارية على وجه الأرض.

قال ابن عباس: " **فشربت وأرضعت ولدها، فقال جبريل: لا تخافوا الضيعة، فإن ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله.** " (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

مرت قبيلة من قبائل العرب، يقال لهم: جُرهم، على هاجر، فعرضوا عليها أن ينزلوا عندها، فوافقت على أن يكون لابنها الماء.

وافقت جُرهم على شرط هاجر، وأقاموا عندها على ذلك، وتمت عليها النعمة، وتحققت أمنية زوجها، واستجيب دعاؤه.

قصة الذبيح:

أقامت هاجر وابنها إسماعيل في أرض الحجاز، وكبر إسماعيل وشب عن الطوق، وكان أبوه يأتي لزيارتهما بين الحين والحين؛ ليطمئن على أحوالهما، وفي إحدى المرات التي كان يزورهما فيها، رأى في المنام أنه يؤمر بذبح ولده إسماعيل، ورؤيا الأنبياء حق، فقام إبراهيم من فوره، وذهب يقصّ رؤياه على ابنه.

قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (الصافات: ١٠١ – ١٠٢)

أُبتلي إبراهيم بالطلب منه أن يهاجر بزوجته وابنه إسماعيل إلى صحراء مكة، حيث المكان القفر، فانقاد لأمر ربه، ثم أُبتلي بأن يذبح بكره إسماعيل.

ومتى أُبتلي بذلك؟ ابتلي بذلك بعد بلغ إسماعيل سنًا يكون في الغالب قد تمكن حبّه من قلب أبيه إبراهيم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ أي: شبّ وصار في مصالحه ومصالح أبيه، فعندما يكبر الولد ويصير في مصالح أبيه يتعلق الأب بابنه أكثر وأكثر، وهذا واقع ومشاهد!!

ومن حكمة إبراهيم ورحمته أن عرض هذا الأمر على ابنه إسماعيل؛ ليختبر صبره؛ وليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يُؤخذ قسراً، ويُذْبح قهراً.

قال الأنصاري: " لم يشاوره ليرجع إلى رأيه؛ لئن أمر الله حَتمٌ، لا يختلف الأنبياء عنده، بل ليختبر صبره، وليوطّن نفسه للذبح، ولتكن (سنّة) في المشاورة، فقد قيل: لو شاور آدم – عليه السلام – الملائكة في أكل الشجرة، لما صدر منه ما صدر. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

فما كان من الغلام الحليم، سرّ والده الخليل إبراهيم، إلا التسليم، بل وحثّ أباه على تنفيذ ما أمر به العزيز الحكيم، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ

﴿ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾ (الصافات: ١٠٢)

أي: امض لما أمرك الله به من ذبحي، فلن تجدني إلا صابرًا محتسبًا، " وهذا جواب من أوتي الحلم والصبر وامتثال الأمر، والرضى بقضاء الله. " (محمد الصابوني)

ولم يتوقف البلاء عند هذا الحد، على رغم ما أبداه إبراهيم وإسماعيل من خضوع وتسليم، بل استمر البلاء، وأخذ يشتد في الصعوبة، حتى أضجع إبراهيم ولده للذبح، وشحذ سكينه، وعزم على ذبحه عزماً أكيداً: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ (الصافات:١٠٣) أي: " فلما استسلما – الأب والابن – لأمر الله، وصرعه على وجهه ليذبحه." (محمد الصابوني)

عندئذ نادى العزيز الرحيم: ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ (الصافات: ١٠٤-١٠٥) أي: نجحت في الاختبار.

وقد يقال: كيف قال:﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ مع أن تصديقها إنما يكون بالذبح، ولم يوجد ذلك؟!

قال الأنصاري: " معناه قد فعلت ما في غاية وسعك، مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك، وإمرار المُدية (السكين) على حلقه، لكن الله منعها أن تقطع. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾ (الصافات: ١٠٥) تعليل لتفريج الكربة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾ (الصافات: ١٠٦) أي: " هذا لهو الابتلاء الذي يتميز به المخلص من المنافق. " (محمد الصابوني)، وتأتي المنّ بعد المحن ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ (الصافات: ١٠٧)

وليس ذلك وحسب، بل رفع الله قدر إبراهيم وإسماعيل، وجعل ذبح الأنعام سنة يُتقرب بها إلى الله إلى قيام الساعة، ينال إبراهيم ثواب من يفعلها.

ومُنح إبراهيم وساماً إلهياً رفيعاً: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨﴾ (الصافات: ١٠٨) أي: لإبراهيم الثناء الجميل الحسن إلى قيام الساعة فما من أمة إلا وتثني عليه خيراً، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ (الصافات: ١٠٩)

تساؤل: لِمَ طلب الله تعالى من خليله إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل؟

قال الصابوني: " إبراهيم اتخذه الله خليلًا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له فتعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده، فأُمر بذبح المحبوب؛ لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه، وقدم محبته على محبة ولده." (محمد الصابوني)

هل إسحاق هو الذبيح؟

قال أبو شبهة: " روى كثير من المفسرين، منهم ابن جرير، والبغوي، وصاحب الدر المنثور، في هذا روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وكعب الأحبار: أن الذبيح هو إسحاق." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: "ولم يقف الأمر على الموقوف على الصحابة والتابعين، بل رفعوا ذلك زورًا إلى النبي صلى الله علبه وسلم." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

فقد روى ابن جرير بسنده عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **الذبيح إسحاق.** " (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

قال أبو شبهة: " وهذا الحديث ضعيف ساقط لا يصح الاحتجاج به. " (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وأخرج الدليلمي بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **إن داود سأل ربه مسألة، فقال: اجعلني مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، فأوحى الله إليه: إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتلي يعقوب فصبر.**" (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وهذا الحديث لا يصح ولا يثبت.

قال أبو شبهة: " والحق: أن المرويات في أن الذبيح إسحاق هي من إسرائيليات أهل الكتاب، وقد نقلها من أسلم منهم، ككعب الأحبار،

وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين تحسينًا للظن بهم، فذهبوا إليه، وجاء بعدهم العلماء فاغتروا بها، وذهبوا إلى أن الذبيح إسحاق." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال: " وحقيقة هذه المرويات، أنها من وضع أهل الكتاب؛ لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبي الأمي العربي، فقد أرادوا أن لا يكون لإسماعيل الجد الأعلى للنبي والعرب فضل أنه الذبيح حتى لا ينجز ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى الجنس العربي." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

ولأجل ذلك حرفوا التوراة، فبدلوا لفظة إسحاق بإسماعيل، ولما كانت آفة الكذب النسيان، فقد غفلوا عن كلمة كشفت كذبهم ودسهم المشين.

" ففي التوراة: (الإصحاح الثاني والعشرين، فقرة: ٢): فقال الرب: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المربا، واصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك ... ." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

" وليس أدل على كذب هذا، من كلمة (وحيدك) وإسحاق – عليه السلام – لم يكن وحيده قط! لأنه ولد ولإسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح توراتهم في هذا، وقد بقي إسماعيل – عليه السلام – حتى مات أبوه الخليل، وحضر وفاته، ودفنه، وإليك ما ورد في هذا:

ففي سفر التكوين: (الإصحاح السادس عشر الفقرة: ١٦) ما نصه:

وكان أبرام – يعني إبراهيم – ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

لذا الصحيح: أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وما ورد عن النبي أن الذبيح إسحاق، قد بان لك أنه إما ضعيف أو موضوع، " وما ورد عن الصحابة أو التابعين – إن صح سنده إليهم – هو من الإسرائيليات التي رواها أهل الكتاب الذين أسلموا، وهي في الأصل من دس اليهود، وكذبهم، وتحريفهم للنصوص حسداً للعرب، ولرسول العرب، قاتلهم الله أنى يُؤفكون." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

قال ابن كثير: " وهذا (أنّ الذبيح هو إسماعيل) هو الظاهر من القرآن، بل كأنه نص على الذبيح هو إسماعيل؛ لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ (الصافات: ١١٢) ومن جعله حالاً فقد تكلف." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وقال ابن كثير: " وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أن الذبيح هو إسماعيل، وليس بإسحاق من قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ٧١﴾ (هود: ٧١)

قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد؟ هذا لا يكون؛ لأنه يناقض البشارة المتقدمة، والله أعلم." (ابن كثير : ٢٠٠٢)

وذكر ابن القيم عشرة وجوه تدل على بطلان أن الذبيح هو إسحاق، منها:

١. أن بكره ووحيده هو إسماعيل باتفاق الملل الثلاث، فالجمع بين كونه مأمورًا بذبح بكره، وتعيينه بإسحاق جمع بين النقيضين.

٢. إن قصة الذبيح كانت بمكة قطعاً، ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة، تذكيراً للأمة بما كان من قصة أبيهم إبراهيم مع ولده.

٣. إن إبراهيم عليه السلام لم يَقْدُم بإسحاق إلى مكة ألبتة، ولم يفرق بينه وبين أمه، وكيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته، فيذبحه بموضع ضرتها في بلدها، ويدع ابن ضرتها؟! (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وأما ما قاله السهيلي: " أنّ الذبيح هو إسحاق احتجاجاً بقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ (الصافات: ١٠٢)، وإسماعيل لم يكن عنده، وإنما كان في حال صغره هو وأمه بجبل في مكة، فكيف يبلغ معه السعي؟!" (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال ابن كثير: " وهذا فيه نظر؛ لأنه قد رُوي أن الخليل كان يذهب في كثير من الأوقات راكباً البراق إلى مكة، يطلع على ولده ثم يرجع، والله تعالى أعلم. " (ابن كثير: ١٩٨٧)

قال أبو شبهة: " وتحير بعضهم في الروايات، فتوقف، كالسيوطي، وحاول بعضهم الجمع بينها فزعم أن الذبح وقع مرتين، والحق: ما

وضحناه لك (أنّ الذبيح هو إسماعيل) فلا تجوّز، ولا توقف، ولا تقل بالتكرار، والله الهادي إلى الحق." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

مولد إسحاق عليه السلام:

كانت سارة عاقرًا وكبيرة في السن، وكان زوجها إبراهيم شيخًا كبيرًا، ورحمة من الله تعالى بها، رزقها رغم كل ذلك غلاماً عليماً، فرزقها الله بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾ (هود: ٧١)

وقد جاء ذكر مولد إسحاق – عليه السلام – في القرآن الكريم في معرض البشارة به، وذلك أثناء مرور الملائكة بإبراهيم وسارة مجتازين ذاهبين إلى قرى قوم لوط؛ ليدمروها عليهم لكفرهم، وفجورهم، وقد كان الملائكة ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقد ظنهم الخليل في البداية أضيافاً، فعاملهم معاملة الضيوف، فشوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره.

قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ ﴾ (الذاريات: ٢٤ – ٢٦)

قرب الخليل الطعام إليهم، وعرضه عليهم، ولكنه لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية؛ لئن الملائكة ليس فيها قوة الحاجة إلى الطعام، فنكرهم إبراهيم وأوجس منهم خيفة، وكان في زمنهم إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شراً، قال تعالى: ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ ﴾ (الذاريات: ٢٧)

عند ذلك أعلنت الملائكة عن هويتهم وسبب مجيئهم: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ (هود: ٧٠)

وعلى عادت العرب وغيرهم كانت سارة قائمة عند رؤوس الأضياف؛ لتقدم لهم خدمة الضيف، فلما سمعت سبب مجيء الملائكة ضحكت استبشاراً وغضباً لله على قوم لوط، ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ ﴾ (هود: ٧١)

فجزاها الله على غضبها له بأن بُشرت ببشرى طالما تمنتها، بُشرت بأنها ستكون أماً لغلام، ولأي غلام غلام طاهر عليم، وأن هذا الغلام سيشب ويولد له يعقوب، ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾ (هود: ٧١)

تفاجأت سارة بالخبر، فهي في حالة من الكبر والعقم تجعل ذلك أمراً مستحيلاً، ودفعتها الحالة الشعورية التي سيطرت عليها عقب سماعها هذه البشرى أن تصرخ ضاربة وجهها من فرط تعجبها

ودهشتها، ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٩)

وتسألت سارة مندهشة ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ (هود: ٧٢) أي كيف يلد مثلي وأنا كبيرة وعقيمة وهذا بعلي شيخاً كبيراً؟ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ (هود: ٧٢)

ردَّ الملائكة على تعجب سارة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ (هود: ٧٣) أي: أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين؟ ليس هذا بمكان عجب من قدرة الله. " (محمد الصابوني)

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (هود: ٧٣) إن لم يكافأ الله أهل بيت خليله إبراهيم فمن يكافأ؟! إنها رحمة الله وبركاته على هذا البيت الطاهر الطيب .

وأكمل الله النعمة على إبراهيم وسارة بأن وُلِدَ يعقوب في حياتهما، فقرت أعينهما بيعقوب كما قرت بوالده إسحاق، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (الأنبياء: ٧٢)، والنافلة: ولد الولد.

تساؤل:

قد يقال: كيف ذكر الله في معرض الامتنان من أولاد إسحاق يعقوب، ولم يذكر معه إسماعيل، بل أخرّه عنه بدرجات، مع أنه أكبر منه؟

قال الأنصاري: " لئن القصد هنا ذكر أنبياء بني إسرائيل، وهم بأسرهم أولاد إسحاق، وإسماعيل لم يخرج من صلبه نبي إلا محمد صلى الله عليه وسلم. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

أو لئن إسحاق وهبه الله تعالى من سارة، وكانت عجوزًا وعقيمًا، فكانت المنة أوضح، فذكرها تعالى، والله أعلم.

قصة زواج إسماعيل عليه السلام:

شبّ إسماعيل – عليه السلام – في أرض الحجاز وصار شاباً حسناً طاهراً، وأُعجبت قبيلة جُرهم بأخلاقه، وعلو همته، وكماله، ولما صار في مبلغ الرجال، زوجوه امرأة منهم، وفي أثناء هذه الفترة ماتت هاجر رضي الله عنها وأرضاها.

جاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل؛ ليطمئن على حال ابنه، فلم يجده، فسأل زوجته عن حالهما، فشكت له عيشتهما.

فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام، وقولي له: غير عتبة بابك!!

وذهب إبراهيم دون أن يلتقي بإسماعيل، وذلك لحكمة أرادها الله.

ولما حضر إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فسأل زوجته، فأخبرته بما جرى مع هذا الشيخ، وأخبرته بما قال: غيّر عتبة بابك.

فقال: ذاك أبي، وأنت العتبة، الحقي بأهلك، وطلقها.
ثم تزوج إسماعيل بغيرها.

عاد إبراهيم – عليه السلام – مرة ثانية، ولم يجد إسماعيل أيضاً، فسأل زوجته الثانية عن حالها، فأخبرته: أنهم في نعمة وخير.
فقد كانت امرأة طيبة وشاكرة لزوجها.
فقال لها: عندما يأتي زوجك، فاقرئيه عليه السلام، وقولي له ثبت عتبة بابك.
عاد إسماعيل، فقال: هل جاءكم أحد؟
فقالت: جاءنا شيخ وذكرت صفته.
فقال: هل قال لكم من شيء؟
فقالت: سألنا عن عيشنا، فأخبرته إنا في نعمة وأثنيت على الله خيرًا.
فقال: فما قال؟
قالت: هو يقرئك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.
فقال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.
وتدل هذه القصة على مدى حرص إبراهيم على ولده، وتدل كذلك على فطنة إسماعيل وذكائه.

قصة بناء الكعبة:

عاد إبراهيم مرة ثالثة إلى أرض الحجاز، وفي هذه المرة قابل ابنه إسماعيل – عليهما السلام – وجده يبري نبلاً عند زمزم، فلما رآه

إسماعيل قام إليه، وفعل ما يفعل الابن بأبيه، والأب بابنه من الشوق والحنين والحنان.

بعد ذلك خاطب إبراهيم – عليه السلام – ابنه قائلاً: يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني ها هنا – وأشار إلى كثبة – بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الحج: ٢٦)

فما كان من الابن البار إلا الموافقة السريعة، وبدأا ببناء أول بيت لله في الأرض، عن أبي ذر قال:" قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ **قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم قال: حيثما أدركت الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد.** " (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

فجعلا يرفعان القواعد من البيت، إسماعيل يحضر الحجارة، وإبراهيم يبني، ولما ارتفع البناء جاء إبراهيم بحجر فقام عليه ليكمل بناءه، وهذا هو مقام إبراهيم الآن، قال تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

(البقرة: ١٢٥) أي: وقلنا للناس اتخذوا من المقام مصلى (أي صلوا عنده).

وكانا يقولان أثناء بنائهما: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (البقرة: ١٢٧ – ١٢٩)

لطيفة: قال الصابوني: " وقوله: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ ورد التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي؛ ولذلك وجه معروف في محاسن البيان، وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان، فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع، والبنّاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، قال ابو السعود: وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها العجيبة المنبئة عن المعجزة الباهرة." (محمد الصابوني)

وقد استجاب الله دعاء خليله، فبعث في ولد إسماعيل أكرم رسله محمد – صلى الله عليه وسلم – على حين فترة من الرسل، داعياً إلى الحنيفية السمحة، فعندما سئل النبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله ما

كان أول بدء أمرك؟ قال: " **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى.**" (رواه أحمد وصححه الألباني)

ولما تمّ البنيان، أمر الله إبراهيم أن يؤذن في الناس بحج البيت؛ ليشهدوا منافع لهم، قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الحج: ٢٧) أي: ونادِ في الناس داعيًا لهم لحج البيت العتيق، يجيبونك ويأتون رجالًا أي مشاة على أقدامهم أو ركبانًا على كل ضامر، وهو الجمل الهزيل الذي قد أتعبه السير، وأنهكه بعد المسافة، وتأتي هذه الإبل من كل فج عميق وهو كل طريق بعيد.

" وقال القرطبي: وَرَدَّ الضمير إلى الإبل (يأتين) تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها كما قال: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ ﴾ (العاديات: ١) في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله." (محمد الصابوني)

لطيفة:

جاء في دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ فقد يقول قائل: "

هل كان لهما ذنوب فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

" **قيل:** أنه ليس أحدًا من خلق الله إلا وله من العمل – فيما بينه وبين ربه – ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة، فجائز أن يكون ما كان

من قبلهما ما قالا منذ ذلك، وإنما خصّا به الحال التي كانوا عليها من رفع قواعد البيت؛ لئن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما؛ وليجعلا ما فعلا من ذلك سنة يقتدى بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصُّل من الذنوب إلى الله." (خالد السبت: ١٤٢١)

" وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا – الذين أعلمتنا أمرهم – من ظلمهم وشركهم، حتى يُنيبوا إلى طاعتك، فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنى به ذريتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرني فلان." (خالد السبت: ١٤٢١)

هل بنى آدم أو الملائكة الكعبة قبل إبراهيم؟

ذُكِرَ أن آدم هو الذي تولى بناء الكعبة، فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: " لما أهبط الله آدم من الجنة، قال: إني مهبط معك بيتًا يطاف من حوله كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده، كما يصلى عند عرشي، فلما كان زمن الطوفان، رفع، فكانت الأنبياء يحجونه، ولا يعلمون مكانه، حتى بوأه الله إبراهيم – عليه

السلام – وأعلمه مكانه، فبناه من خمسة أجبل: من حراء، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وهذه الرواية من الإسرائيليات المردودة، والتي لا تصح، قال ابن كثير: " والأشبه – والله أعلم – أن يكون موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص، ويكون من الزملتين اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث بما فيهما." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وذكر أنَّ الذي تولى بناء الكعبة الملائكة، وهذا القول مأخوذ من الإسرائيليات المردودة المكذوبة.

والصحيح: أن إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – هما اللذان توليا بناء الكعبة، وهذا هو الصحيح، وهو ظاهر القرآن والسنة الصحيحة.

قال ابن كثير: " ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ولا ظاهر، لئن مراده: مكان المقدر في علم الله تعالى، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موقعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم." (محمد أبو شبهة: ١٤٠٨)

ويرد على أن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة إشكال لما رواه أبو ذر قال:" قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ **قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون، ثم قال: حيثما أدركت الصلاة فصلِّ، والأرض لك مسجد.** " (رواه البخاري: (٣٤٢٥)، ومسلم: (٥٢٠))

والإشكال: إنَّ بين إبراهيم وسليمان – عليهما السلام – أكثر من أربعين عامًا.

وقد أجاب النووي: ورد أن واضع المسجدين آدم، وبه يندفع الإشكال بأن إبراهيم بنى المسجد الحرام، وسليمان بنى بيت المقدس، وبينهما أكثر من أربعين عامًا بلا ريب، فإنهما مجددان.

فأدم – عليه السلام – وضع أساس البيتين (المسجد الحرام والأقصى) لا أكثر من ذلك، ولا يسمى واضع الأساس صاحب البناء الحقيقي، بينما صاحب البناء الحقيقي هو مَنْ رفعه حتى صار ظاهرًا، وعليه يكون صاحب البناء الحقيقي للكعبة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، بيد أنهما رفعا البناء على الأساس الذي وضعه آدم عليه السلام.

مقام إبراهيم:

هو حجر أثري قام عليه إبراهيم لما ارتفع بناء الكعبة، وهو الحجر الذي تعرفه الناس اليوم عند الكعبة، ويصلون خلفه ركعتي الطواف، وهو حجر مربع الشكل طوله نصف متر تقريبًا، ولونه بين البياض والسواد والصفرة، ومغطى حاليًا بواجهة رخامية، وفي هذا الحجر أثر قدمي إبراهيم – عليه السلام – بعدما غاصت فيه قدماه؛ وذلك لأنه حجر ماء، فغاصت فيه قدم إبراهيم، مما برزت فيه آثار قدميه، ولكن نتيجة لتمسح الناس طمست ملامح القدم.

قال ابن كثير: " وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفًا تعرفه العرب في جاهليتها، وقد أدرك المسلمون ذلك أيضًا، كما قال أنس: رأيت المقام وفيه أصابعه وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. " (ابن كثير: ٢٠٠٢)

وكان المقام عند الكعبة فأخره عمر في مكانه المعروف اليوم.

حِجر إسماعيل:

حِجر إسماعيل أو الحطيم أو الحِجر، هو بناء على شكل نصف دائرة من الجهة الشمالية من الكعبة، وهو في الأصل جزء من الكعبة، ولكن قريش حين بنت الكعبة نقصتها النفقة؛ لأنها شرطت أن تكون نفقة البناء من المال الحلال، فأخرجوا هذا الجزء من البناء وأحاطوه

بسياج حتى يعلم أن هذا الجزء من الكعبة؛ لذا يعد هذا الجزء من الكعبة، ويأخذ أحكامها.

وأصل الحِجر أن إبراهيم حينما بنى الكعبة بمشاركة ابنه إسماعيل جعل بجانب الكعبة من جهة الشمال حِجرًا مدورًا حولها، وبنى عليه عريشًا من أراك لغنم إسماعيل؛ لتؤوي إليه، ولما قصرت النفقة بقريش اقتطعوا من جهة الشمال حوالي سبعة أذرع وضموها إلى حِجر إسماعيل.

وبعد أن بُعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – رغب في إعادة بنائها على قواعد إبراهيم، بأن يضم إليها ما اقتطعته قريش منها وجعلته في الحِجر، لكنه لم يفعل ذلك؛ لئن الناس كانوا حديثي عهد بالجاهلية.

ولما احترقت الكعبة زمن إمارة عبد الله بن الزبير لمكة، هدمها وأعد بناءها على الصورة التي كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يرغب بناءها عليها، فأدخل فيها ما اُقتطع للحِجر.

وعندما قُتل عبد الله بن الزبير عام (٧٣ هـ)، كتب الحجاج بن يوسف الثقفي لعبد الملك بن مروان يعلمه بما فعل ابن الزبير في بناء الكعبة، فكتب إليه عبد الملك أن يعيد الحِجر كما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فنقض الحجاج الكعبة وبناها عل سابق عهدها.

وفي عهد الدولة العباسية أراد الخليفة المهدي أن يبني الكعبة على ما بناها ابن الزبير، فاستشار الإمام مالك بن أنس فيها عن ذلك، فقال مالك: إني أكره أن يتخذها الخلفاء لعبة، هذا يرى رأي ابن الزبير، وهذا يرى رأي عبد الملك بن مروان، وهذا يرى رأيًا آخر.

وللحِجر فضل عظيم، والصلاة فيه مستحبة؛ لأنه من البيت.

ذكر إبراهيم في الكتب المقدسة:

" اتفقت الأديان الثلاثة الكبرى: اليهودية والنصرانية والإسلام على تقديس إبراهيم – عليه السلام – واحترامه، والتباهي بالانتساب إليه، بل وصل الحد إلى ادعاء كل من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، حتى فضح القرآن جهلهم بقوله: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ (آل عمران: ٦٥ – ٦٨)" (محمد هراس)

" وقد جاء ذكره – عليه السلام – في الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن. وكلها تشير إلى مكانته العالية في الدين، وتفضي عليه ما هو أهل له من المديح والثناء." (محمد هراس)

" فقد جاء ذكره في سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر:

إن الرب قال لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أربيك فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك من يباركك، ومن يلعنك ألعنه، وفيه تتبارك جميع قبائل الأرض، فذهب إبراهيم كما قال له الرب وذهب معه لوط." (محمد هراس)

" وفي المصادر المسيحية ذُكر – وإن كان على ندرة – ففي الإصحاح الثامن من إنجيل متّى، يقول المسيح عليه السلام: الحق أقول لكم لم أجد في إسرائيل إيماناً بمقدار هذا، وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في ملكوت السموات، وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية." (محمد هراس)

وأما القرآن الكريم فقد أفاض الحديث عنه ببالغ التكريم وعظيم الثناء وفريد الذكر.

قال تعالى : ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)

لمّا وفّى إبراهيم ما أمره به ربه من التكاليف الشرعية العظيمة (أوامر ونواه)، فقام بهن خير قيام، جعله تعالى للناس إماماً يقتدون به، ويأتمون بهديه، وسأل إبراهيم الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه، فأجابه تعالى إلى ما سأل ورام، وسُلّمت إليه الإمامة بزمام، واستثنى من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون.

" واختلف المفسرون في الكلمات التي اُختبر بها إبراهيم عليه السلام، وأصح الأقوال ما روي عن ابن عباس أنه قال: الكلمات التي أُبتلي بهن إبراهيم فأتمهن: فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجة النمرود في الله، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم، وما أُبتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه. " (محمد الصابوني)

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ

قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (البقرة : ١٣٠ – ١٣٢)

فلا يترك دين إبراهيم الحق وملته الغراء إلا من استخف نفسه وظلمها، فأي دين هو أصوب من دين الذي اصطفاه الله بالرسالة والإمامة، وجعله من المقربين.

ويمدح الله تعالى خليله بأنه لما طلب من إبراهيم الاستسلام لأمره سرعان ما استجاب إبراهيم لذلك، ولم يستجب لها وحسب بل جعلها وصيته للأبناء والأحفاد.

وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ ﴾ (النساء : ١٢٥)

رغّب الله تعالى في اتباع صراط إبراهيم عليه السلام؛ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم، وقد قام بجميع ما أمره به ربه من تكاليف عظيمة وأوامر كبيرة، فاستحق بذلك مدح الله له ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ ﴾ (النجم: ٣٧)؛ ولهذا اتخذه الله خليلاً، والخلة هي غاية المحبة.

إلى غيرها من المواضع والتي تصل إلى خمس وثلاثين موضعاً، منها خمسة عشر موضعاً في سورة البقرة وحدها.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾ (الصافات : ١٠٩)، تحية لخليل الرحمن، تحية لأبي الأنبياء، وأحد أولى العزم من الرسل، ومن الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾ (الصافات : ١٠٩) تحية لثاني الأنبياء شرفاً بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾ (الصافات : ١٠٩) تحية لأول من يُكسى يوم القيامة.

فعن ابن عباس أنه قال: قام فينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطيبًا بموعظة فقال: " **يا أيها الناس . إنكم تحشرون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤ ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام.** " (رواه مسلم: ٢٨٦٠)

قال مصطفى الخن:

"سيدنا إبراهيم – عليه السلام – من أولي العزم من الرسل، وهذه مزية لسيدنا إبراهيم – عليه السلام – لا تقتضي الأفضلية؛ لأنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين، وخير الخلق أجمعين، أو

أنه أول من يُكسى بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصة

إبراهيم عليه السلام

تمهيد

قصة إبراهيم كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١)

١. فضل دعوة إبراهيم عليه السلام:

" لم تكن أهمية الدور الذي قام به إبراهيم – عليه السلام – في الدعوة إلى التوحيد قاصرة على ما بذله في حياته من جهد استحق به الخلة للرحمن، وتبوأ به منصب الإمامة في الدين، بل إن أهمية دوره لتظهر أكثر وأكثر في امتداد دعوته في الأجيال من بعده، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الزخرف: ٢٦ – ٢٨)

وكقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (العنكبوت : ٢٧)

فجميع الأنبياء بعد إبراهيم – عليه السلام – كلهم من ذريته، ولهذا لقب بأبي الأنبياء." (محمد هراس)

٢. كِذْبات إبراهيم الثلاث:

نُسب لإبراهيم – عليه السلام – ثلاث كذبات، اثنتان منهن في ذات الله، وهما قوله:﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾ (الصافات: ٨٩)، وقوله: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنبياء: ٦٣)، وواحدة في شأن سارة، عندما سئل عنها، فقال: " **أختي** ".

فهل كذب إبراهيم؟

الحق أن إبراهيم – عليه السلام – لم يكذب، وإن هذه الأقوال من معاريض الكلام، والتي قال عنها صلى الله عليه وسلم: **إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب.** " (رواه البخاري في الأدب المفرد)

قال ابن قتيبة: " فقول إبراهيم: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أي سأسقم؟ لئن كل من كُتِب عليه الموت لا بد أن يسقم، فأوهمهم إبراهيم بمعاريض الكلام أنه سقيم عليل، ولم يكن عليلًا سقيمًا، ولا كاذبًا." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

وقيل: أي مريض القلب من عبادتكم للأصنام.

" وقوله ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ أراد: بل فعله الكبير، إن كانوا ينطقون، فاسألوهم، فجعل النطق شرطاً للفعل، أي إن كانوا ينطقون فقد فعله، وهو لا يعقل ولا ينطق." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

أو: " قاله استهزاء وتهكمًا بمن سفهوه، وإلا ففاعله هو نفسه. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

أو: " أنه لما كان الحامل له على الفعل تعظيمهم للأصنام، وكان كبيرهم أبعث له على الفعل، لمزيد تعظيمهم له، أسند الفعل إليه؛ لأنه السبب فيه. " (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

" وقوله عن سارة " **أختي** " فبنوا آدم يرجعون إلى أبوين، فهم إخوة، ولئن المؤمنين إخوة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠)" (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

أما الذي رُوي عن الرسول: **"والله ما كَذَبَ إلا وهو يماحل بها عن الإسلام."** (رواه ابن الأثير الجزري) أي يدافع ويجادل، سماها الرسول – صلى الله عليه وسلم – كذبات؛ لأنها شابهت الكذب وضارعته؛ " لذلك قال بعض السلف لابنه: يا بني لا تكذبن، ولا تشبهن بالكذب، فنهاه عن المعاريض؛ لئلا يجري على اعتيادها، فيتجاوزها إلى الكذب،

وأحبّ أن يكون حاجزاً من الحلال بينه وبين الحرام." (ابن قتيبة: ٢٠٠٢)

وإطلاق إبراهيم على هذه الأقوال كذبات، في حديث الشفاعة، " **فيأتون إبراهيم، فيقول: إني لست هُناكم** (أي: لست أهلًا لذلك، وهو كناية عن التواضع) **ويذكر كلمات كذبهن.**" (رواه البخاري: (٧٤٤٠)، ومسلم: (١٩٣))

إنما هو من باب شدة الخشية لله، فعده الخليل – عليه السلام – أقواله السابقة كذبات، رغم أنها من المعاريض، نظراً لعظمت مكانته عند الله ، فمثله لا يصح أن يقع منه ذلك، فسماها كذبات، وكما يقال: " حسنات الأبرار سيئان المقربين. "

٣. هل المعاريض من الحيل التي نهى عنها الإسلام؟

المعاريض: هي أن يريد الإنسان أن يتكلم بالكلام الذي إن صرح به كان كذبًا، فيعارضه بكلام آخر يوافق ذلك الكلام في اللفظ، ويخالفه في المعنى، فيتوهم السامع أنه أراد ذلك.

ومن أمثلة المعاريض:

ما قاله النخعي:

إذا بلغ الرجل عنك شيء قلته، فقل: الله يعلم ما قلت من ذلك من شيء، فيتوهم السامع النفي، ومقصودك الله يعلم الذي قلته.

ونحو: أن يقول شخص: فلان يثني عليك، وهو يقصد بذلك أنه يثني على جنسك من المسلمين، فإن كل إنسان يثني على المسلمين من غير تخصيص.

قال ابن القيم: " فالمعرض إنما يقصد باللفظ ما جعل اللفظ دالاً عليه ومُثبتاً له في الجملة، فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام، فإن الكلام فيه الحقيقة والمجاز، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمفرد والمشترك، والمتباين والمترادف .

وتختلف دلالته تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وقد يكون التعريض بالقول والفعل معاً، كما قال سليمان عليه السلام :" **ائتوني بالسكين أشقه بينكما** ". (رواه البخاري: (٦٧٦٩)، ومسلم: (١٧٢٠))

وقد يكون بإظهار الصمم وإنه لا يسمع، وبإظهار النوم، وإظهار الشبع، وإظهار الغنى، بحيث يحسبه الجاهل غنياً.

وكما يقع الإجمال في الأقوال، فكذلك يقع في الأفعال، كما أعطى النبي – صلى الله عليه وسلم – عمر حلة من الحرير، فلما لبسها أنكر عليه، **وقال: لم أُعْطِكها لِتلبسها**، فكساها أخاً له مشركاً بمكة.

فكلٍ من الإجمال والاشتراك والاشتباه يقع في الألفاظ تارة، وفي الأفعال تارة، وفيهما معاً تارة.

ومن أنواع المعاريض: أن يتكلم المتكلم بكلام حق يقصد به حقيقته وظاهره، يوهم السامع نسبته إلى غير قائله؛ ليقبله ولا يرده عليه، أو ليتخلص به من شره وظلمه. (ابن القيم بتصرف: ٢٠٠٢)

هل المعاريض من الحيل التي نهى عنها الإسلام؟

قال ابن القيم: " والمعاريض ليست من الحيل التي نهى عنها الإسلام، فأين المعاريض التي يتخلص بها الإنسان من الظلم والكذب، إلى الحيل التي يسقط بها ما فرض الله تعالى، ويستحل بها ما حرم الله.

فالمُعّرض تكلم بحق، ونطق بصدق فيما بينه وبين الله تعالى، لا سيما إذا لم ينو باللفظ خلاف ظاهره في نفسه، وإنما كان الظهور من ضعف فهم السامع وقصوره في معرفة دلالة اللفظ.

ومعاريض النبي – صلى الله عليه وسلم – ومزاحه عامته كان من هذا الباب، كقوله صلى الله عليه وسلم : " **نحن من ماء.** "، وأكثر معاريض السلف كانت من هذا. (ابن القيم بتصرف: ٢٠٠٢)

٤. هل يجوز الكذب في بعض الحالات؟

الكذب محرم تحريماً قطعياً، ولم يبحه العلماء إلا بشروط محددة اختصرها النووي بقوله: الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود يمكن تحصيله بغير الكذب يحرم الكذب فيه، وإن لم يمكن تحصيله إلا بالكذب لا يمنع الكذب فيه.

بمعنى:

- الإصلاح بين الناس أمر محمود، فإن أصلحت بين متخاصمين بغير كذب فنعمت، وإن لم تستطع إلا بالكذب جاز لك الكذب.
- إنسان مظلوم اختبئ عندك، وجاء ظالمه يسأل عنه، ردّك الظالم أمر محمود، إذا استطعت رده بغير كذب فحسن، وإن لم تقدر إلا بالكذب لك ذلك.
- حديث الرجل لزوجته بما يسرها، وحديثها لزوجها بما يسره أمر محمود، وإن تحقق ذلك بغير كذب فجميل، وإن احتاجا للكذب لا يمتنع. وهكذا.

ويقال: الأحوط يوري في ذلك، ولكن إن لم يورِ لا جناح عليه، والله أعلم.

٥. يا ناركوني برداً وسلامًا على إبراهيم:

أهان إبراهيم آلهة قومه بالتفتيت، فكان عقابه منهم إلقاءه في نار عظيمة، وحفظ الله إبراهيم من هذه النار، فلم تضره، وقد يُتساءل: **لِمَ لَمْ يُنْزل الله مطراً – مثلاً – أو يُرْسل رياحاً لإطفاء النار؟**

لم يُنزل الله مطراً أو يُرسل رياحاً ونحو ذلك، حتى لا يَنْسب قوم إبراهيم نجاته منها إلى أسباب عارضة، نحو: نزول المطر أو هبوب الرياح، فيتغافلون عن السبب الحقيقي وهو قدرة الله؛ ولكي تظهر كرامة الله لإبراهيم جلية أمام أعدائه؛ ولتبقى ثناء حسناً بعد موته.

٦. حكم قتل الوزغ:

أمر النبي بقتل الوزغ (البرص) ففي صحيح مسلم: **من قتل وزغًا في أول ضربة كتب له مئة حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك.**" (رواه مسلم: ٢٢٤٠)

ما علة قتله؟

المشهور بين الناس تعليل قتله بما جاء في حديث أم شريك رضي الله عنها أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " **وكان ينفخ على إبراهيم عليه السلام.** " (رواه البخاري: ٣٣٥٩)

فسبب قتله نفخه النار على إبراهيم، وهذا التعليل قد يطرح الاعتراض التالي: **لماذا نحن مأمورون بقتل الوزغ، مع أن الوزغ الموجود الآن ليس هو الذي كان ينفخ النار على إبراهيم؟**

نعم، هذا اعتراض مقبول؛ لذا العلة الصحيحة: الوزغ لا يقتل بذنب جده، وإنما يقتل لكونه ضاراً مؤذياً، ولا فرق بين الموجود في البيوت والأرض الفضاء.

٧. " حسبي اللّه ونعم الوكيل " ملجأ كل مظلوم:

قال ابن عباس: **حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم – عليه السلام – حين ألقي في النار، وقالها محمد – صلى الله عليه وسلم**

- **حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.** (رواه البخاري: ٤٥٦٣)

فقول: " **حسبنا الله ونعم الوكيل** " الحصن الحصين، والملجأ المنيع لكل مظلوم ومقهور في أي زمان ومكان، من قالها بصدق وإخلاص كانت النتيجة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ (آل عمران: ١٧٤)

٨. البشارة بإسحاق:

وقعت البشارة بإسحاق مرتين: مرة يُبشر بها إبراهيم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ (الصافات: ١١٢)، وأخرى تُبشر بها زوجته قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ (هود: ٧١)

ما السر في ذلك؟

يقول دكتور محمد خلف الله: " لا يدل ذلك (التكرار) على أن القرآن في قصصه يلجأ إلى نوع من الحرية الفنية في تناوله مسائل التاريخ إذ لا يتقيد بالحقيقة التاريخية، وإنما يستبيح لنفسه ما يستبيحه أي فنان في صوغ قصة تاريخية، بل إن هذا التكرار يدل على نظرة القرآن إلى المرأة وزوجها، وعلى أنهما شيء واحد، فإسحاق ابنهما، فلتسند البشارة مرة

إلى الاب، ومرة إلى الأم لا فرق في ذلك، ولا اختلاف في الحقيقة بين الروايتين وهما سواء في هذا الموضوع." (عبد الحميد إبراهيم: ١٩٨٨)

٩. إذا أتتك الهموم كالجبال، تذكر أرحنا بها يا بلال:

عندما ذهبت سارة – رضي الله عنها – لمقابلة ملك مصر الجبار العنيد، قام إبراهيم مصلياً لله عز وجل، وأخذ يسأل ربه أن يدفع الشر عن أهله، وأن يرد شر الملك الجبار إلى نحره، فعصمها الله من كيد الملك الجبار العنيد وصانها، بل وأخدمها هاجر؛ وبذلك يتبين عظم الصلاة في دفع المصائب، ولهذا أمرنا تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (البقرة : ٤٥)، وها هو الرسول – صلى الله عليه وسلم – إذا أهمه شيء فزع إلى الصلاة، وكان كثيراً ما يقول: " **يا بلال، أقم الصلاة أرحنا بها**". (رواه ابو داود: ٤٩٨٥)

فإذا أتتك الهموم كالجبال، تذكر أرحنا بها يا بلال.

١٠. حقيقة غيرة سارة من هاجر:

ذُكر: أن سارة قد غارت من هاجر بعدما أنجبت الأخيرة إسماعيل،

فهل شعرت سارة بالغيرة من هاجر؟

وكيف تشعر امرأة رفيعة المنزلة مثل سارة بالغيرة؟

وهل شعورها بالغيرة هو السبب الذي من أجله أُمر إبراهيم – عليه السلام – بإرسال هاجر وإسماعيل إلى الصحراء؟

بداية: غيرة المرأة من ضرائرها أمر جبلت عليه؛ لذا لا تؤاخذ عليه ما لم تتعدَ، فإن تعدت وظلمت أختها(ضرتها)، نحو: تقع في غيبة أو نميمة تؤذي بها ضرتها فقد ظلمت، وبذلك تأثم.

وما حصل من غيرة سارة تجاه هاجر هو من باب الغيرة الفطرية غير الآثمة، فطلبت من زوجها ألا ترى ضرتها أو تجاورها وهذا أمر غير مستنكر، مع أن الذي ذكره أهل العلم أن إبراهيم – عليه السلام – هو الذي خرج بهاجر وإسماعيل، وليس سارة هي التي طلبت منه ذلك.

ويدل على ذلك قول هاجر: " **يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فقالت: إذن لا يضيعنا.** " (رواه البخاري: ٣٣٦٤)

١١. هاجر الزوجة الصالحة:

هجرة إبراهيم بزوجته ورضيعه إلى أرض الحجاز حيث المكان الموحش القفر في ذلك الوقت، وتركهما بمفردهما وحيدين لأمر عجيب.

ولكن الأعجب منه هو موافقة هاجر على ذلك، مع تقينها هلاكها وهلاك ابنها في هذا المكان.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن هاجر كانت قادمة من الشام حيث البيت العامر، وقبل الشام كانت مقيمة في قرى مصر المتمدنة، فما هذه المعيشة الجديدة؟ وما هذه المعيشة الجديدة التي بلا رفاهية ولا مدنية، بل والهلك يحوم وينتظر؟!

وهل لهذا التطور يمكن أن يرضي النفس البشرية؟! بالطبع، لا!

فَلِمَ وافقت هاجر على البقاء في هذا المكان؟!

إنه اليقين بالله الذي تعلمته في بيت النبوة، والذي عبرت عنه بكلمات موجزة " **فإذن لا يضيعنا** "، وكما فهمت اليقين بالله، فهمت كيف تكون زوجة معينة لزوجها على طاعة ربه، إنها هاجر أمنا يا بني ماء السماء!!

توضيح: قال أبو هريرة عن هاجر رضي الله عنها: " فتلك أمكم يا بني ماء السماء" .

قال ابن حجر: " أراد بماء السماء زمزم؛ لئن الله أنبعها لهاجر، فعاش ولدها بها، فصاروا كأنهم أولادها، قال ابن حبان في صحيحه: كل من كان من ولد إسماعيل، يقال له ماء السماء؛ لئن إسماعيل ولد هاجر، وقد رُبي بماء زمزم، وهي من ماء السماء. " (عدنان الكحلوت:٢٠١١)

وهاجر مع كونه مطيعة لله، ومعينة لزوجها على طاعة ربه، وتنفيذ أوامره وإن كانت تسبب لها المشقة، كانت ربة بيت ممتازة مهتمة بأعمال بيتها، ونفهم ذلك من قول ابن عباس: " أول من اتخذ المِنْطق من قبل أم إسماعيل اتخذت مِنطقًا؛ لتعفي أثرها على سارة. " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

" المِنْطق: من النطاق، وجمعه مناطق، وهو تلبس المرأة ثوبها، ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها، وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال؛ لئلا تعثر في ذيلها. " (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

١٢. الصلاح من الله والأدب من الآباء:

عاشت هاجر وطفلها إسماعيل – عليه السلام – في أرض الحجاز بمفردهما، بدون وجود الزوج إبراهيم – عليه السلام – إذا ما استثنينا الفترات التي كان يطالع فيها أسرته، ومن المؤكد أن مواقف صعبة قد مرت على هاجر وإسماعيل عليه السلام، والذي يظهر أن الله قد حفظهما من كل سوء، بل وأجرى عليهما النعم تترى.

والسؤال: ما سبب حفظ الله تعالى لهما؟!

السبب الرئيسي هو صلاح الزوج إبراهيم عليه السلام، وقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم:" **الصلاح من الله والأدب من الآباء.**" (رواه البخاري في الأدب المفرد)

وروي عن بعض السلف قوله لابنه: لأزيدن من صلاتي لأجلك.

وصدق الشاعر:

رأيتُ صلاح المرءِ يُصلح أهله ويُعديهم داءُ الفساد إذا فسد
يُعظمَّ في الدنيا بفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت في الأهل والولد

فأسرتك هي ظلك إن استقمت استقاموا.

١٣. آداب الدعاء:

عندما ترك إبراهيم زوجته ورضيعه في صحراء مكة الموحشة آنذاك، رفع أيدي الضراعة مبتهلًا إلى ربه ضارعاً ذليلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧)

ومن هذا الدعاء نستخلص أهم الآداب في الدعاء، **ومنها:**

- إظهار الضراعة والذلة أمام الله تعالي.

- رفع اليدين لتأكيد الضراعة.
- اشتمال الدعاء على اسم من أسماء الله تعالى.
- التوجه نحو البيت (القبلة).
- الدعاء بالخير.
- ألا يستكثر شيئاً في الدعاء، وإنما يطلب ويطلب فخزائن الله ملآى وفضله كثير.
- لا يستبطئ الإجابة.
- إطابة المطعم والمشرب.

واعلم أن دعاء المسلم لا يضيع، إما يُستجاب له ويتحقق المطلوب عاجلاً، وأما يدفع عنه سوءاً مثله، أو يدخر له في الآخرة.

وبذلك نفهم قول عمر – رضي الله عنه – إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، وقول زياد بن أبي زياد: أنا من أن أمنع الدعاء، أخوف من أن أمنع الإجابة.

١٤. أيهما أسبق التزكية أم التعليم؟

بداية التزكية هي: مخالفة أهواء النفس، والبعد عن المعاصي والذنوب.

ونعود للسؤال **أيهما أسبق التزكية أم التعليم؟!**

آيات القرآن الكريم قدمت التزكية على التعليم، مما يدل على أهميتها، كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وغيرها من الآيات.

بينما جاءت آية واحدة قدمت التعليم على التزكية، وهي قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٩)

ما السرّ في ذلك؟

إنّ الآية التي قُدِمَ فيها التعليم على التزكية هي من قول إبراهيم عليه السلام، ولما كانت وظيفة الأنبياء والمرسلين هي التعليم في المقام الأول، قدمها إبراهيم على التزكية التي تعد تابعة لاحقة للتعليم في حق الأنبياء.

وهذا يفهم منه أن اهتمام الراعي يجب أن ينصب أولاً على التعليم، وإبراز الحق للعامة، ولا يشغله حصول التزكية من عدمه، حيث أن التزكية ليست بمقدور الراعي ولا باستطاعته استجلابها، فهي ملك لله

وحده يهبها من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (النور: ٢١)

١٥. حقيقة الأحلام:

إن الروح عند النوم تذهب إلى حيث يشاء الله تعالى لها، ثم إنها في هذه الحال ترى منامات ومرائي تنقسم إلى أقسام ثلاثة:

أ – **رؤيا صالحة:**

وهي ما يحبه الإنسان ويتمناه، وهذه من الله تعالى، وهي من نعم الله تعالى على الإنسان؛ لأنه إذا رأى ما يحب فرح ونشط، وصارت رؤياه بشرى، فالرؤيا الصالحة يراها الإنسان – أو تُرى له – وهي عاجل بشرى المؤمن، ومن رأى رؤيا حسنة، فليحدث بها من يحب من الناس.

ب – **رؤيا مكروهة:**

وهي ما يكره الإنسان ولا يتمناه، وهي من الشيطان؛ ليحزنه ويزعجه ويقلقه، ولن تضره – إن شاء الله – إذا استعاذ بالله تعالى من شر ما رأى ومن شر الشيطان، ولا يحدث بها أحداً، ولا يحرص على تفسيرها.

ج – رؤيا لا صالحة ولا مكروهة:

وهي حديث النفس، فعندما ينشغل الإنسان بشيء ما ويفكر فيه يراه في منامه.

هل للأحلام أحكاماً شرعية في الدنيا؟

ليس للأحلام أحكامًا في الدنيا، وقد يقول بعض الناس: رأيت النبي – صلى الله عليه وسلم – في النوم، فقال لي كذا وأمرني بكذا، فهل أعمل بها وأترك الحدود الموضوعة في الشريعة؟ قال الشاطبي: " لا؛ لئن الرؤيا من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً على حال إلا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية، فإن سوغتها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا." (الشاطبي: ١٩٩١)

بقي إشكالان:

الإشكال الأول: ورد أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة، وإذا كانت كذلك فلا ينبغي أن تهمل.

الإشكال الثاني: أن الرسول قال: " **من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي.**" (رواه مسلم: ٤٣٢٤)، وإذا كان ذلك فإخباره في النوم كإخباره في اليقظة.

وقد أجاب الشاطبي عن هذين الإشكالين:

أما الأول: " إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة فليست إلينا من كمال الوحي، بل جزء من أجزائه، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه، بل إنما يقوم مقامه في بعض الوجوه، وقد صرفت إلى جهة البشارة والنذارة، وفيها كاف. " (الشاطبي: ١٩٩١)

"وأيضاً فإن الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة من شرطها أن تكون صالحة من الرجل الصالح، وحصول الشروط مما ينظر فيه، فقد تتوفر، وقد لا تتوفر." (الشاطبي: ١٩٩١)

وأما الثاني: قوله صلى الله عليه وسلم: " **من رآني في المنام فقد رآني.** "، قال الشاطبي: " ليس معنى قوله " **من رآني في المنام فقد رآني.** " أن كل من رأى في منامه أنه رآه، فقد رآه حقيقة. " (الشاطبي: ١٩٩١)

بدليل أن الرائي قد يراه مرات على صور مختلفة، ويراه الرائي عل صفة، وغيره على صفة أخرى، ولا يجوز أن تختلف صور النبي –

صلى الله عليه وسلم – ولا صفاته، وإنما معنى الحديث: من رآني على صورتي التي خلقت عليها، فقد رآني، إذ لا يتمثل الشيطان بي، وأنى لهذا الرائي الذي رأى أنه رآه على صورة أنه رآه عليها؟ وإن ظن أنه رآه، ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته." (الشاطبي: ١٩٩١)

١٦. الأبناء قرة عين الإنسان:

الأبناء قرة عين الإنسان في حياته، وبهجته في عمره، وأنسه في عيشه، بهم تحلو الحياة، وعليهم بعد الله تعلق الآمال، لا سيما الصالحين منهم.

ومن وُهِبَ هذه النعمة الكبرى، والمنة العظمى، فليحمد ربه عليها، كما قال إبراهيم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (إبراهيم: ٣٩)

ومن شُكْر نعمة الأولاد، القيام بحقهم من حسن تربية، وإكمال عقيدة، وإتمام خلق، وإقامة عبادات.

فالأب المسلم الحق يدرك حجم مسؤوليته العظمى في هذه الحياة، " **كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته.** " (رواه البخاري:(٢٥٥٤)، ومسلم: (١٨٢٩))

١٧. الخلة أعلى درجات المحبة:

الخلة هي أعلى درجات المحبة وغايتها، فالخلة هي محبة تخللت روح المحب وقلبه حتى ملأته.

قال الشاعر :

وقد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمي الخليل خليلا

وقد ثبتت الخلة من الله تعالى لاثنين من البشر فقط، هما: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ (النساء: ١٢٥)

وثبت عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: " **إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا.** " (رواه ابن حبان: (٦٤٢٥)، وهو حديث صحيح)

وقال: " **لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله – عز وجل – صاحبكم خليلًا.** " (رواه مسلم: ٢٣٨٣)

قال الطحاوي: " والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد؛ لئن المحبة قد تثبت لمحمد ولغيره، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، ﴿

فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (آل عمران: ٧٦) ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (التوبة: ١٠٨)

فبطل قول من خصَّ الخلة بإبراهيم، والمحبة بمحمد، بل الخلة خاصة بهما، والمحبة عامة." (الطحاوي: ٢٠٠٠)

ونفهم من ذلك: خطأ من قال: محمد حبيب الله، وإنما الصواب: محمد خليل الله، صلى الله عليه وسلم.

" واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته، كسائر صفاته تعالى." (ابن أبي العز: ٢٠٠٠)

١٨. آداب الضيافة:

الضيافة خلق فاضل قديم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، فإبراهيم أول من أضاف على هذا الوجه الحسن؛ لذا يقال: إبراهيم أبو الضيفان، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الذاريات: ٢٤ – ٢٧)

وقد حملت هذه الآيات الكريمات الكثير من آداب الضيافة، ومنها:

١. قيام إبراهيم عليه السلام برد تحية أضيافه بأفضل تحية من تحيتهم، فهم قالوا: ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ (الذاريات: ٢٥)، وهو قال: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ ﴾ (الذاريات: ٢٥)

قال البلاغيون: رد إبراهيم أفضل من سلام الملائكة، وهكذا الذي يرد التحية إما يرد بمثلها أو أحسن منها، فتقدير الكلام إذا رددنا المحذوفات:

- قال الملائكة: نسلم عليك سلامًا. (وهذه جملة فعلية)
- فقال إبراهيم: سلام عليكم أنتم قوم منكرون. (وهذه جملة اسمية)

والجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام.

وإذا قلت: لماذا حُذفت تلك التقديرات؟

الجواب: لكثرة دوران مثل هذه الاستعمالات.

وقال ابن عطية: وإبراهيم – عليه السلام – قد حيا بأحسن؛ لئن قولهم دعاء، وقوله واجب قد حصل لهم." (خالد السبت: ١٤٢١)

وقد يقول قائل: قول إبراهيم ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ ﴾ يخالف آدب الضيافة.

قال أبو حيان: " والذي يناسب حال إبراهيم – عليه السلام – أنه لا يخاطبهم بذلك، إذ فيه من عدم الأنس ما لا يخفى، وإنما قال ذلك في نفسه، أو لمن كان معه من أتباعه وغلمانه." (محمد الصابوني)

٢. الإسراع في الضيافة ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: " فمضى إلى أهله في سرعة وخفية عن ضيفه؛ لئن من آداب المضيف أن يبادر بإحضار الضيافة من غير أن يشعر الضيف، حذرًا من أن يمنعه الضيف، أو يثقل عليه في التأخير، قال ابن قتيبة: عدل إليهم في خفية ولا يكون الرواغ إلا أن خُفِيَ ذهابك ومجيئك." (محمد الصابوني)

٣. الإتيان بأطيب الطعام ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾، وهو العجل صغير السن المشوي، واختاره سمينًا زيادة في إكرامهم.

٤. وَضْع الطعام قريباً من الضيوف، حتى لا يكون هناك حرج في أكلهم، ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

٥. التعريض بالأكل ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ فلما لم يأكلوا قال لهم في تلطف وبشاشة ألا تأكلون هذا الطعام.

ومن آداب الضيافة – كذلك – أن يحرص المضيف أن يتأكد أن ضيفه يأكل، وذلك بمسارقة نظر بلا تحديد نظر، ومن لطائف ما روي في ذلك: " أن أعرابياً أكل مع هشام بن عبد الملك، فرأى هشام في لقمة الأعرابي شعرة، فقال له: أزل الشعرة عن لقمتك، فقال له: أتنظر إلي نظر من يرى الشعرة في لقمتي، والله لا أكلت معك! " (الجاحظ: ٢٠١٠)

حكم الضيافة:

" والضيافة عند عامة أهل العلم ليست واجبة، وليس معنى ذلك ألا يكرم الإنسان ضيفه، فقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه.** " (رواه البخاري: (٦٠١٨)، ومسلم: (٤٧))

" فينبغي أن يكرم الإنسان ضيفه لا سيما في اليوم الأول، وأما في باقي اليومين يأتي بما يتسر، فالضيافة ثلاثة أيام." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

" وكما أن المسلم يكرم ضيفه، ينبغي على المسلم ألا يضيف نفسه عند أخيه وهو يعلم أنه فقير ليس عنده ما يضيفه به، حتى لا يوقعه في الحرج أو الإثم." (مصطفى الخن وآخرون: ١٩٩٢)

١٩. العرفان بالجميل من أهم أسباب نجاح الحياة الزوجية:

العرفان بالجميل خلق أصيل مطلوب ومحبوب، قال صلى الله عليه وسلم: " **لا يشكر الله من لا يشكر الناس**" (رواه أبو داود: (٤٨١١)، حديث صحيح)

وشيوع الشكر بين أفراد الأسرة أهم دعامة لنجاح الحياة الزوجية واستمرارها، فالزوجة التي يُقدم إليها زوجها معروفاً تسعد باهتمام زوجها

بها وحبه لها، وفي المقابل الزوج الذي قدم المعروف لزوجته يسعده أيما سعادة تقدير زوجته له وشُكْرها لمعروفه، والعكس صحيح.

هكذا جُبلت النفوس، ولله درّ العدواني: مكتوب في الحكمة: أشكر مَنْ أنعم عليك، وأنعم على مَنْ شكر لك.

وعلى النقيض إنكار المعروف أو استقلاله من أسباب التعاسة الزوجية، فالزوج أو الزوجة اللذان يقابلان خدمة الآخر بنظرات الاستقلال أو بعبارات تفيد أنه لم يكن في حاجة إليها، يزرعان الكراهية، ويحبطان من تقديم غيرها من خدمات، فيتعس الجميع بانتزاع البركة فيما بينهما، وصدق عثمان بن عروة: الشكر وإن قلّ ثمن لكل نوال وإن جلّ.

وبذلك نفهم لماذا طلب إبراهيم من ابنه إسماعيل – عليهما السلام – أن يطلق زوجته الأولى ويمسك الثانية!

٢٠. حكم الختان:

ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم.** " (رواه البخاري: (٣٣٥٦)، ومسلم: (٢٣٧٠))، فكما كملت طهارته المعنوية كملت طهارته الحسية.

والختان من سنن الفطرة، قال صلى الله عليه وسلم: " **الفطرة خمس أو خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب.**" (رواه البخاري: ٥٥٧٤)

ما حكم الختان؟

قال القرضاوي: " الختان للذكور فهو من شعائر الإسلام، حتى قرر العلماء أن الإمام لو رأى أهل بلد تركوه لوجب عليه أن يقاتلهم حتى يعودوا إلى هذه السنة المميزة لأمة الإسلام.

أما حكم الإسلام في الختان للبنات، فقد اختلف العلماء والأطباء أنفسهم ...، ولعل أوسط الأقوال وأعدلها وأرجحها، وأقربها إلى الواقع، وإلى العدل في هذه الناحية، هو الختان الخفيف، كما جاء في بعض الأحاديث وإن لم تبلغ درجة من الصحة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " لامرأة تقوم بهذه المهمة، قال لها: " **أشمي ولا تنهكي، فإنه أنضر للوجه وأحظى للزوج.**"

والإشمام هو التقليل، ولا تنهكي أي لا تستأصلي، فهذا يجعل المرأة أحظى عند زوجها، وأنضر لوجهها فلعل هذا يكون أوفق. " (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

وقال القرضاوي: والبلاد الإسلامية تختلف بعضها عن بعض في هذا الأمر، فمنها من يختتن، ومنها لا يختتن، وعلى كل حال، من رأى أن هذا أحفظ لبناته فليفعل، وأنا أؤيد هذا وخاصة في عصرنا الحاضر، ومن تركه فلا جناح عليه؛ لأنه ليس أكثر من مكرمة للنساء، كما قال العلماء، وكما جاء في بعض الآثار. " (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

٢١. الموت على الإسلام:

وصية إبراهيم لبنيه وجميع الذرية كانت: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ (البقرة: ١٣٢)

والسؤال: وهل يملك الإنسان أن يموت على الإسلام؟

نعم، يمكن للإنسان أن يموت على الإسلام إذا أحسن في هذه الحياة الدنيا، وإن التزم الإسلام منهجًا، فإن الله يوفقه للوفاة عليه، فإن المرء يموت – غالباً – على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأن من قصد الخير وُفّق له ويّسّر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه، وقد قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ (الليل: ٥ – ١٠)

وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح:

" **إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها.** " (رواه مسلم: ٤٩١٠)

لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: **ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس.**

أي: يعمل هذا العامل عمل المنافق الشاك؛ لذا يظهر الله خبيئة نفسه قبل الموت، ويموت على ما كان يبطنه من نفاق وشك.

قال محيي الدين الدرويش:

" وفي النهي عن الموت أو الأمر به نكتة بلاغية رائعة، فهو في حد ذاته ليس بمنهي عنه ولا مأمور به؛ لأنه من الأمور التي لا تدخل في الإرادة الإنسانية، ولكنه نهي عنه لإظهار أن الموت على خلاف الإسلام هو موت لا خير فيه، وأنه ليس بموت السعداء، ولكن مُت الميتة التي تورثك خلود الذكر في الدنيا والجنة والحياة الرغيدة في الآخرة، وقد تشبب أبو الطيب المتنبي بهذه النكتة، فقال:

عش عزيزًا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٢٢. خدمة المرأة لزوجها:

حق الزوج في خدمة زوجته له ليس محل اتفاق بين العلماء، وإنما اختلفوا فيه على قولين:

" **الأول:** غير واجبة على الزوجة، وهذا قول الشافعية والحنابلة والحنفية والمالكية في قول عندهم.

الثاني: خدمة الزوجة لزوجها واجبة." (محمد الحفناوي)

قال محمد الحفناوي:

" والقول القائل بخدمة الزوجة لزوجها هو القول الراجح، وهو الذي يطبق الآن في البيوت، وقد يعاون الزوجة خادم أو أكثر على حسب حالة الزوج المادية." (محمد الحفناوي)

قال القرضاوي:

" القضية محلولة بنفسها فالمرأة المسلمة حقًا تقوم بخدمة زوجها وبيتها بحكم الفطرة، وبمقتضى التقاليد التي توارثها المجتمع الإسلامي جيلًا بعد جيل، والمرأة المتمردة أو الشرسة لا تنتظر رأي الدين ولا يهمها قول أحد من الفقهاء لها أو عليها." (محمد الحفناوي)

" وقد يكون من فائدة معرفة الزوج بأن كثيراً من الفقهاء لا يرون من الواجب على الزوجة القيام بخدمة الزوج ....، ألا يشط بكثرة طلباته من زوجته ....، وأن لا يحاسبها الحساب العسير! إذا قصرت في ذلك؛ لأنها تقوم بشيء مختلف في وجوبه عليها." (محمد الحفناوي)

٢٣. بديعة بيانية:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤)

قال محيي الدين الدرويش:

" في هذه الآية لون بلاغي بديع يسميه أهل البلاغة فن المراجعة، وهي أن يحكي المتكلم مراجعة في القول جرت بينه وبين محاور في الحديث، أو بين اثنين غيره بأوجز عبارة، وأبلغ إشارة، وأرشق محاورة، مع عذوبة اللفظ وجزالته، وسهولة السبك، انظر إلى هذه القطعة من الكلام التي عدة ألفاظها ثلاث عشرة لفظة كيف جمعت معاني الكلام من الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وهذا هو التفصيل:

أ- الخبر في قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ وهو في الحقيقة وعد باستخلافه على الناس.

ب- الاستخبار في ضمن الخبر؛ لأنه فرع عليه، إذا الخبر يصير استخبارًا بتصدير ما يدل على الاستفهام.

ج- الأمر في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ فإن معناه الطلب لذريته وعد به من الاستخلاف، فكأنه قال: رب وافعل ذلك لبعض ذريتي، وكل أمر طلب، لكنه إذا كان من الله أوجب حسن الأدب أن يُسمى دعاء، ولا يطلق عليه لفظ الأمر، وإن كان أمرًا في أصل الوعد.

د- النهي وهو ضمن الأمر؛ لئن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فكأن معناه: ولا تحرم بعض ذريتي من ذلك.

هـ- الوعد، تقدم بيانه في الخبر.

و- الوعيد في قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإن حاصل ذلك أن الظالمين من ذريتك لا ينالهم استخلافي، وحرمان ذلك غاية في الوعيد.

ومن شواهد هذا الفن الشعرية قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

بينا ينعتنني أبصرتني　　دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى؟　　قالت الوسطى لها: هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيّمتها:　　قد عرفناه وهل يخفى القمر؟

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

الخاتمة

ما كانت دعوة إبراهيم دعوة عادية، إنما كانت ابتداء عهد جديد للدعوة إلى التوحيد، كانت دعوة قوية حارة متبرئة من الشرك وأهله، ﴿إِنَّا بُرَءَآؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة: ٤)

دعوة متبرئة حتى من أقرب الناس: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ (التوبة : ١١٤)

وعلى الرغم ما في دعوته من قوة وحرارة بالغتين إلا أنها لم تخرج عن كونها – كصاحبها – دعوة حليمة لطيفة، سلك فيها أفضل السبل التي لا يملك معها لأي إنسان لديه مسكة من عقل أن يرفضها.

فهل استجاب له قومه؟ يا للأسف رد قومه دعوته، بل وعزموا على إحراقه بالنار، فجاءه الغوث من رب العالمين، وسَلِمَ إبراهيم من كيد قومه وشرهم.

ترك إبراهيم قومه مهاجراً أول هجرة لله في التاريخ إلى الشام ثم مصر، وجزاه الله على ذلك خير الجزاء فمَنّ الله عليه بغلام حليم من

زوجته هاجر المصرية، أسماه إسماعيل، كما ورزقه من سارة بغلام عليم أسماه إسحاق.

ابتلي إبراهيم بأوامر وتكاليف غاية في الصعوبة فأتمهن، ابتلي بأن يهاجر بزوجته هاجر ورضيعه إسماعيل إلى أرض فاران (الحجاز) حيث المكان الموحش، فنفذ أمر ربه برضى نفس، وطيب خاطر.

تركهما في هذا المكان القفر الموحش وليس معهما غير رعاية الله وحفظه، فحفظ الله وديعة خليله إبراهيم، وأجرى عليهم النعم من ماء زمزم إلى أفئدة من الناس تهوي إليهم.

ثم ابتلي إبراهيم بأمر أكثر صعوبة هو ذبح بكره ومهجة قلبه إسماعيل، فما نكص عن أمر ربه حتى منحه الله الثناء الجميل في العالمين، فما من أمة ألا وتثني عليه خيرًا.

وهكذا عاش إبراهيم داعياً للتوحيد غارساً شجره، غرس التوحيد بعرقه وجهده، وأتم أبناؤه الأنبياء من بعده غرسه بتعهدهم شجرة التوحيد، نعم كانت تذبل أحياناً وتورق أحياناً، ولكن في الغالب لم يفنيها الموت والانتهاء.

حتى جاء الرسول الأمي الهاشمي القرشي محمد صلى الله عليه وسلم، فبعث في شجرة التوحيد الحياة، فنمت واستغلظت، واستوت على سوقها، وفرعها في السماء.

إبراهيم أحمد قشطة

قائمة المراجع

١. إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار الكتب العلمية، ١٩٩١م .

٢. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢م .

٣. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٧م .

٤. زكريا بن محمد الأنصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م .

٥. بدر الدين بن مالك الدمشقي ابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

٦. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعًا ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١هـ.

٧. حافظ بن أحمد حكمي، معارج القبول، دار الحديث، ١٩٩٩م.

٨. شمس الدين بن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار ابن رجب، ٢٠٠٢م .
٩. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار الآفاق العربية، ٢٠٠٠م .
١٠. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي، نادي الأدب بالمنيا، ١٩٨٨م .
١١. عبد الرحمن بن ناصر السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢م .
١٢. عبد الرحمن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، ٢٠٠٠م .
١٣. عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، بدون سنة نشر.
١٤. عبدالله بن مسلم ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م .
١٥. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١م.
١٦. علي القرني، أختاه هل تريدين السعادة، دار عمار بن ياسر، ٢٠٠٢م .

١٧. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠م.

١٨. علي بن محمد ابن أبي العز، شرح الطحاوية، دار الحديث، ٢٠٠٠م.

١٩.محمد إبراهيم الحفناوي، الزواج، مكتبة الإيمان، بدون سنة نشر.

٢٠.محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.

٢١. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٥م .

٢٢. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار ابن حزم، ٢٠٠٢م .

٢٣.محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨هـ.

٢٤. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.

٢٥. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.

٢٦. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، دار ابن كثير، ٢٠٠١م .

٢٧. مصطفى سعيد الخن وآخرون، نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م .

٢٨. يوسف القرضاوي، من هدى الإسلام فتاوى معاصرة، دار القلم، ٢٠٠١م.

تمت بحمد الله